المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم اجتباه بالنطق، وخصه بالبيان، وألهمه الفهم، ورزقه العلم، وبعث إليه أفصح العرب، وسيد ولد آدم سيدنا – محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين – وبعد.

فإن الباحث في العربية ، العاكف على دواوين شعرائها، ليدرك من الوهلة الأولى جمال الإبداع الفني الذي أودعه المبدع – سبحانه – في خواطر الشعراء، وخيالاتهم، وطرائق صورهم وألوان تعبيراتهم، يستوي في ذلك القدامى والمعاصرون، فالكل في جانب الإبداع سواء، مع التفاوت في عطاءات الله لهم؛ ومن ثمَّ فإن مواهب الخالق – جل وعلا – لا تنحصر في زمان ولا مكان، ولا تقتصر على قدامى أو محدثين، بل هناك من شعراء عصرنا من نسجوا على منوالهم إبداعًا، وأضافوا إلى موروث تراثهم صورًا، وفنًا، وشعرًا رائقًا أصبح حديث النقاد، ومحل إعجاب الكبار منهم، أشادوا به في كل موطن. من هؤلاء شاعرنا " علي شوقي " محل الدراسة، الذي أثنى عليه العقاد، وجعله امتدادًا لمدرسة "الشريف الرضي"، ولونًا مشابهًا ومشاكهًا له، لكنه لم يكن تكرارًا له بغير جديد(١).

ومن هنا فلقد لفت نظري، واسترعى انتباهي جانب من أبرز جوانب الإبداع عند "علي شوقي" ألا وهو " الإبداع العاطفي" ، والخيال الرومانسي، والرؤية السامية لديه تجاه المرأة التي رآها الشاعر ملهمة الكون وسر الحياة؛ فطفقت أتلمس هذا في ديوانه، وأتابعه في أشعاره؛ حتى وضحت لي رؤيته، واستبان لي منهجه، واتضحت نظرته نحو معشوقاته، وتقربه إلى فاتناته، ومن تغنى بهن مدة حياته.

وتأسيسًا على ما جمعت في هذا المقام من أشعار فقد جاء البحث مكونًا من ثلاثة فصول تسبقها مقدمة وتمهيد، وتتلوها خاتمة وفهارس فنية.

أما المقدمة: فقد أوضحت من خلالها خطة البحث، وسر اختيار موضوعه، ومنهجه الذي ارتضيته، منطلقًا من خلاله إلى آفاق الرؤية الرومانسية في ديوان الشاعر، جاعلاً من المنهج التكاملي مرآة تعكس جماليات التصوير عند "علي شوقي"، من خلال التحليل والعرض، مع أضواء استعنت بها من المناهج الأدبية الأخرى، توضح أسرار شعره وبدائع تعبيراته.

وأما التمهيد: فقد جاء عنوانه : "إطلالة على حياة "علي شوقي" .

وأما الفصل الأول: فقد كان تحت عنوان : "وقفات على أطلال الحبيبة وديارها".

وأما الفصل الثاني: فعنوانه: "الغزل ووصف الجمال وبيان أحوال المحبين".

ثم جاء الفصل الثالث تحت عنوان: "التغني بالطبيعة ومزج مفرداتها بالحب الرومانسي".

ثم كانت الخاتمة: وفيها أجملت أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها.

---

(١) مقدمة ديوان "علي شوقي" ص ح بقلم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد طبعة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب سنة ١٩٥٨م سلسلة الألف كتاب (١٦٦) .

ولقد ذيلتُ البحثَ بفهرسٍ للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

وبعد... فهذا بحثي – أضعه بين يدي أساتذتي أعلام الأدب والنقد، وسدنة العربية، ونجوم سمائها – لا أدعي فيه الكمال – فإنه لله الكبير المتعال – نشدت فيه إبراز الجانب العاطفي، والموقف الوجداني عند " علي شوقي " .

فإن كنت قد وفقت فمن الله توفيقي وعوني، وإن حدتُ عن القصد، فحسبي أنني اجتهدت وإلى النجاح سعيت ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾[1].

الباحث

عبد الله محمود أبو شعيشع عمر

"ملخص البحث بالعربية"

يتناول هذا البحث عرضاً " للرؤية الرومانسية " عند الشاعر " علي شوقي " ويُقصد بها "عرض الجانب العاطفي" الذي ذاع في ديوان الشاعر ، واحتل الجانب الأكبر منه، مصطبغًا – من خلال حديثه عن الحبيبة المعشوقة – بالصبغة الطاهرة، محلقًا في سماء الروح ، بعيدًا عن أدران المادة، متساميًا عن قيود الحس، واقفًا على عتبات العذريين.

ولقد عالج البحث جوانب عديدة برزت في هذا الإطار، من أهمها: أن الشاعر وقف على أطلال الحبيبة، وسالت دموعه مدرارة على ديارها ومرابعها.

كذلك صال وجال في آفاق شتى في جانب الغزل، واصفًا الحبيبة في كثير من أحوالها معه، وتقلبات خواطرها وعواطفها، جاعلاً من وصف أحواله معها أيضًا صورة تُكَمِّل وتُجَمِّل حال المحبين، وترسم صورة جامعة عنهما عند الملتقى.

كذلك كشفت هذه الدراسة عن ولوع الشاعر بالطبيعة ووصفها، والذي اتخذ منه أداة للتعبير عن عواطفه واشجانه، وقد استطاع بذلك أن يمزج بها حبه وشوقه كما فعل كثير من الشعراء العاشقين .

([1]) سورة آل عمران الآية (٨) .

Research Summary

` This research deals with a presentation of the "romantic vision" of the poet "Ali Shawqi", which means the "emotional side" that was published in the poet's poet and occupied the largest part of it, stained - through his talk about the beloved lover - with pure color, flying in the sky of the soul, far away On transcendence of matter, transcending the limitations of sense, and standing on the threshold of virgins. The research dealt with many aspects that emerged in this context, the most important of which is: that the poet stood on the ruins of the beloved, and his tears flowed over her homes and their estates. He also prayed and toured various horizons on the side of spinning, describing the beloved in many of her conditions with him, and the fluctuations of her thoughts and emotions, making the description of his conditions with her also a picture that complements and beautifies the situation of the lovers, and draws a comprehensive picture of them at the meeting. This study also revealed the poet’s fondness for nature and its description, and who used him as a tool to express his emotions and feelings, and thus he was able to blend his love and longing with it, as did many of the loving poets.

التمهيد :

" إطلالة على حياة علي شوقي "

اسمه والتعريف به:

هو علي شوقي بن محمد بن مصطفى، المولود في مدينة دمنهور بمحافظة البحيرة في التاسع من سبتمبر من عام تسعين وثمانمائة وألف من الميلاد، والمتوفى في القاهرة في الثالث والعشرين من يونيه من عام ست وخمسين وتسعمائة وألف من الميلاد، بعد أن قضى في حياته ستًا وستين سنة(١).

مكانته الأدبية:

لا نجد في بيان مكانة " علي شوقي " الأدبية أجمل من قول صديقه العقاد عنه في مقدمة ديوانه : "صاحب هذا الديوان نسيج وحده في شعرنا العربي الحديث، ونحن نرد هذه الصفة إلى معناها حين نقول عن صديقنا الراحل إنه نسيج وحده... والذي نعنيه حين نصف شاعرنا بهذه الصفة: هو أنه كان في منهجه فردًا لم يتكرر على مثاله، وأنه كان في مصر " مدرسة الشريف الرضي " بغير مثال أو مقارب في أسلوبه ومنحاه"(٢).

ومعنى هذا أن الشاعر قد حاز على إعجاب ناقد كبير كالعقاد، حتى جعله – من خلال استقراء شعره – صورة مكررة للشريف الرضي، عائدة من ماض بعيد؛ ومن ثَمَّ فهو امتداد له متأثر به، مع استقلال "علي شوقي" بلفظه ومعناه، وبعض من أغراض شعره.

يقول العقاد في هذا الصدد : "فإذا قيل إن صاحب هذا الديوان " نسيج وحده" بمصر في مدرسة " الرضي"، فهي صفة لا تطوي قريحته في قريحة شاعر آخر كائنًا ما كان، شأنه في العظمة والإجادة ، ولكنها عنوان مدرسة من مدارس البلاغة، تبرز من ورائه هذه الشاعرية العصرية بكل ما تأصَّل فيها من سليقة، وكل ما كسبته من ذخيرة الدرس والاطلاع(٣).

ثقافته:

لقد عَبَّ "علي شوقي" من ثقافة عصره ونهل، وارتضع الثقافة الأدبية من أفاويقها، وعكف على التراث العربي الخالد، يستظهره ويعاود النظر فيه مرة بعد أخرى، مرجحًا بعض الشعراء على بعض، يروق له الواحد منهم، ثم سرعان ما يملأ عينه وقلبه ومشاعره إعجابًا بالآخر ، حتى استقر قراره، وركنت نفسه، وارتاح وجدانه إلى مدرسة "الشريف الرضي"، وطفق ينظر في شعره، ويحاكي صوره وأسلوبه، ويشابهه في فخره وزهوه، وثقته في نفسه، وترفعه عن الآخرين، وحكمته، وخبرته، وعفته، وتبرمه من زيف المخالطين له، والمحيطين به، ممن يدَّعون الإخلاص له، أو يظهرون الوداد على عكس ما يضمرون، إلى آخر كل هذا .

يقول العقاد عنه – رحمهما الله –:

" كان صديقنا وصديقه " المازني " – رحمه الله – يقرأ " الشريف الرضي "، ويعجب به كإعجابه،

(١) ديوانه صـ٥.

(٢) مقدمة العقاد لديوان الشاعر ص ز بتصرف .

(٣) مقدمة العقاد لديوان الشاعر ص ك .

وكان أسلوب الشريف ينطبع في قريحته، فيبدو على غير قصدٍ منه في نظم عباراته وتراكيبه، ولكن "المازني" كان يقرأ الشريف، ويعيد قراءته في أيام كثرت فيها قراءته للشعراء المختلفين من الأوربيين، فامتزجت آثار هذه القراءات ، ولم تجتمع كلها على النمط الشريفيّ المعهود، واجتمعت آثارُ القراءة والإعجاب كلها – أو كادت – في أسلوب " علي شوقي " ، مع استقلاله بلفظه ومعناه"[١].

نماذج من شعره:

لقد انتخب "العقاد" في مقدمته لديوان الشاعر نماذج من أشعاره، وعرضها في سياق إعجابه بشعره، الذي تخطى فيه مرحلة التقليد ، ومرحلة المحاكاة، إلى مرحلة البعث الجديد في صورة من صور الحياة، يقول العقاد[٢]:

" اقرأه وهو يقول في مقاصد : "الفخر الحكيم" أو في " الحكمة الفاخرة" التي اشتهر بها الشريف:

وما راقني الوعد من صاحب
ولا راعني من عدوٍّ وعيد
وبت من الناس في راحة
سواء قريبهم والبعيد
أعيش كما عاش ليث الشرى
وحيدًا وهل ذل ليثٌ وحيد
يروح ويغدو على قوته
ويكفيه من قوته ما يصيد

أو يقول في الفخر:

وما أنا إلا البدر عاق سُفوره
خُسوفٌ ولكن لم يعقه عن السير

أو اقرأه وهو يقول في النصيحة:

ولا تيأسن من رحمة الله واتئد
فإن قنوط العاقلين جنون
وإن لم يكن خطب ففيم تجلد
وإن لم يكن حرب ففيم حصون

أو يقول في الأمثال الحكيمة:

إن شاب رأس الفتى شابت جهالته
وكيف يدرك شيئًا مَرَّ وَهْوَ صبي

أو يقول في الغزل العفيف:

وأعذر أهل العذل ثم ألومهم
وأحرى بعذر العاشقين اللوائم
ومن كان مثلي يعشق النفس حرة
قضى وهو عن كل الخبائث صائم

أو اقرأه وهو يقول في الشكوى مع الأنفة:

وما التبرم بالأيام من خُلُقي
ولا الشكاة لغير الله من ديني
لكنها زفرة نهنهتها زمنًا
طمَّتْ فقلتُ لها مستيئسًا بيني[٣]

" لقد كان شاعرنا يطلع على الكثير من آداب السلف المنتقاة، وكان يكسب ما يكسب من ثمار تلك المطالعات ، ولكنه كان ابن عصره في مكسوبه وموهوبه على السواء"[٤]، رحم الله شاعرنا "علي شوقي"، وجعله في الصالحين.

---

(١) مقدمة العقاد لديوان الشاعر ص ز ، ح .
(٢) من مقدمة العقاد لديوان الشاعر ص ط .
(٣) من مقدمة العقاد لديوان الشاعر ص ي .
(٤) السابق ص م .

الفصل الأول

وقفات على أطلال الحبيبة وديارها

إنَّ الوقـوف علـى أطـلال الحبيبـة، وذرف الدموع على ذكريات القرب، وأزمنة الوصل لهو أمر قديم قدم وجود الإنسان على ظهر الأرض، طالما فيه إحساس نابض، ووجدان خافق، يتأثر بما يحدث حوله، أو يدور في أفلاك دهره وأيام عصره.

ولقد وقف الشعراء القدامى على أطلال المحبوبة، وبكوا وأبكوا، وسألوا الربع، وانهمرتْ دموعهم عنده حسرات، وتبعهم في ذلك من جاء بعدهم من الشعراء الذين قلدوهم تارة، وتأثروا بهم تارة أخرى، فسلكوا منهجهم، وأبدعوا إبداعهم، لكن الأمر ربما يتغير، والزمان قد يتطور، بيد أن الإحساس بالبعاد واحد، والتذكر لمراتع الصبا، ومواقع اللهو، وقرب الحبيب لا يتغير، ولا يتبدل، لكنه يتلاقى في تشابه وتشاكه؛ إذ المحبون – في كل حال – يجترون آلام البعاد، عاكفين – بأسى وحسرة – أمام كل ذكرى تذكرهم بالحبيب، وتنقلهم إلى عهد قد تولى، وزمان قد تصرم.

وشاعرنا "علي شوقي" واحد من هؤلاء الشعراء الذين أعطوا للربع حقه، وقوفًا برسومه، وبكاء على أماسيه الجميلة. يقول في شجن ولهفة يخاطب صديقيه:

دعاني وشأني عَلَّ يشفي غليليا

وعلَّ زماني بالمنى ينطوي ليا

فما ثَمَّ إلا نوحة من متيم

تخفف حزنًا أو تزيد تأسيا

دعاني وشأني واذهبا حيث شئتما

فيقضي الهوى بالصب ما كان قاضيًا

ولا تعذلاني لا أبا لأبيكما

فيا حبذا لو أذهب العذل ما بيا

فإني أرى في سفحة الدمع راحة

ولو أنها مما يسر الأعاديا[1]

والأبيات التي أوردناها هنا مقدمة لبكاء الربع، يخاطب فيها الشاعر "علي شوقي" صاحبيه؛ وقد استبد به اليأس، ويطلب منهما أن يتركاه وشأنه، لعل غليله يشفى، وزمانه بالمنى ينطوي، وما هي إلا نوحة من متيم هَدَّهُ الشوق، وأذواه الجوى، تخفف حزنه، أو تشعل شوقه، وتزيد أساه.

ولعل في خطاب "علي شوقي" صاحبيه، بقوله: "دعاني وشأني" ما يضاعف حزنه، ويدلل على تنامي أزمته، واشتعال لوعته، ورغبته الملحة في أن يلقى مصيره، متفردًا لا صديق معه، ولا صاحب[2]، وهذا ما قصده بقوله:

دعاني وشأني واذهبا حيث شئتما

فيقضي الهوى بالصب ما كان قاضيًا

---

(1) ديوان علي شوقي صـ٥٢ .

(٢) وهناك دلالات أخرى في نداء الصاحبين، ورمزية للاستعانة بهما، ومخاطبتهما في كثير من قصائد الشعر العربي. ينظر في توضيح ذلك : شعرنا القديم والنقد الجديد. د/ وهب أحمد رومية صـ٢٢٥ إلى صـ٢٣٠ – عالم المعرفة – ١٩٩٦م – الكويت .

وواضح من الأبيات أن الشاعر مستسلم لهواه، مستعد لما يفعله به، ومن ثَمَّ فقد طلب إلى صاحبيه أن يتركاه، ولا يعذلاه على عشقه، أو يلوماه على شوقه، فلن يجدي في ساحة الحب شيء؛ ولو كان اللوم يفيد في إبراء الهوى، ومداواة العاشقين، فأهلاً باللوم، وحبذا العذل، لكن الحب غير هذا، فلن يجدي معه لوم، أو يسفيه عذل أو ينسيه تقريع أو تشنيع.

ويعلل الشاعر "علي شوقي" رغبته في التفرد، وجنوحه إلى العذلة؛ ليذرف الدمع على ربعه مدرارًا، ويسكب على دياره الدمعات غذارًا، مقررًا أن في هذا وفاء لذكريات عاشها فيه وأماسي أحياها في ربوعه وجوانبه؛ ومن هنا فإنه يرى في انسكاب دموعه عليه راحة له، وانهمال عبراته في جنباته وفاءً أيَّ وفاء، لحبه وحبيبته على السواء. يقول في صدق ولوعة:

ولا تعذلاني لا أبا لأبيكما
فيا حبذا لو أذهب العذل ما بيا
فإني أرى في سفحة الدمع راحة
ولو أنها مما يسر الأعاديا
وإني إذا لم أعط للربع حقه
فلست لمحبوب مدى الدهر وافيا
سأبكيه حتى يشهد الغيث أنني
بكيت فأفحمت السحاب الغواديا
وأندب عيشًا بددته يد النوى
وكان نعيمي فاستحال شقائيًا
وعهدًا تولى كان بالوصل منة
فصار بهجران الحبيب أمانيا[1]

وجلي ظاهر أنَّ الشاعر متحرق العواطف، متدفق التعبير، متقد المشاعر، صادق التجربة، تلك التي سكبها في إطار فني رائع، وألفاظ مشعة موحية قوية مؤثرة؛ فما أجمل قوله وأعذبه:

سأبكيه حتى يشهد الغيث أنني
بكيت فأفحمت السحاب الغواديا

بعد أن جعل بكاءه عليه واجبًا، وانسكاب دموعه في ساحاته حقًّا ووفاءً، وأي دمع يسكبه "علي شوقي" حتى يلتفت إليه الغيث، ويشهد بانهماله، وأي بكاء ينهل من جفونه ليفحم السحاب الغوادي المحملة بالماء، ويجعلها – بالقياس إلى انهمال دموعه – بخيلة ضنينة مبهوتة ومفحمة؛ لأنها لم تنسكب بالعطاء انسكاب دموع الشاعر على ربوع محبوبته سحًا وتسكابًا.

والبيت نفسه يشي بتحدٍ ظاهر ببكاء الربع؛ وتجدد مستمر لا ينقطع من الشاعر، ولا يفترق عنه؛ فهو دائم الانهمال ما دام في السحابة ماء، موصول بالبكاء حتى يقر الغيث بأن العين المنهمرة أشد انسكابًا من السحب المسجومة، وأكثر عطاءً من الغوادي المنهملة، وفي كل هذا مبالغة رائعة، وتعبير شعري، وصدق فني يشهد لعلي شوقي بالشاعرية وحسن التصوير، ويقر لتجربته بالأصالة والصدق.

ويعقد الشاعر – بحلقة من الحزن – بين بكائه المستمر ، وندب عيشه المنقضي، فيعطف الندب على البكاء؛ لتتوالى نكباته، وتتضاعف عبراته، فيقول:

(١) ديوان علي شوقي صـ٥٢، ٥٣.

وأندب عيشًا بددته يد النوى
وكان نعيمي فاستحال شقائيًا
وعهدًا تولى كان بالوصل منة
فصار بهجران الحبيب أمانيا

وكلها عواصف ورياح، عصفت بجوانح الشاعر؛ فبددت حبه، وفرقت شمله؛ فكان جديرًا بالبكاء، وحريًا بالندب، الذي أشاح به في وجه الزمان القاسي والأيام الجافية الكزة؛ فندب عيشه المتفجع عليه؛ لأن يد النوى قطعت وصله، وبعثرت شمله، فما أقواها وأقساها، تلك التي أحالت نعيمه شقاء، وحبه هباءً، ووصله جفاء، وصرمت وصلاً في عهود رغده، رفرفت في سماء حبه بنود هواه، لكنها سرعان ما تحولت بعد هجران الحبيب وبعاده أحلامًا باهتة، وأماني مبددة، ولا يملك "علي شوقي" إلا استدعاء ربع الحبيبة، متمسحًا في منزلها، متذكرًا مرابعها وأماكن لهوه معها، فيناديه بصوتٍ عالٍ، وياء متفجعةٍ، وحسرة وأسى، تذكرنا بمن سبق من أعلام الشعر الجاهلي، الذين أعطوا للربع حقه في البكاء، والوقوف والنداء، وتلك عادتهم. يقول علي شوقي في حسرة:

فيا أيُّها الربع الذي كان أهلاً
لك الله من ربع وإن كنت خاليًا
ويا أيها الخل الذي أنا خله
فديتك من خلٍ وإن كنت نائيًا
ويا أيها الواشي الذي كان بيننا
مضى ما مضى كرهًا فلا عدت ثانيًا[1]

وتلك نداءات ثلاثة، رفع الشاعر فيها عقيرته في حالة من الحزن المسيطر والهم الممض، مستأنسًا بالربع، داعيًا له، وباسطًا أسارير الرضا لخله الوفيّ، موجهًا سيلاً من الدعوات الحارقات على الواشي الحاقد، ألا يعود مرة ثانية، فقد كدَّر صفوه، وغبَّر عيشه.

ونلاحظ على الأبيات الثلاثة عدة أمور:

الأمر الأول في نداء الربع: الوفاء المطلق، والدعاء من الشاعر له، بعد النداء الحار عليه، مستحضرًا ماضيه الذي كان آهلاً بالمحبوبة، بهيجًا بالأنس والقرب والمودة والوصال، ولذا؛ فالربع هنا يمثل ركيزة أصيلة في جانب الشاعر العاطفي؛ لأنه رمز، وجزء من علاقته بماضيه المنقضي، الذي كان فواحًا بالقرب ممن يعشقها؛ ومن ثم دعا له "علي شوقي" بأسلوب عربي رائع : " لك الله من ربع"، حزين وموشى بمعنى التعجب منه، والإعجاب به، حتى ولو كان الربع في حاضره مقفرًا متهدمًا مهجورًا غير مسكون؛ إلا أنه – مع هذه الحالة – يحمل عبق الماضي، وبهجة الزمن الجميل، الذي دنت فيه غصون أنسه على الشاعر، ورفرفت مباهجه مغردة في جوانبه كالعصفور، متغنية بأمانيه وأماسيه كالشحرور[2].

---

(1) ديوان علي شوقي صـ٥٣ .

(2) وكأنه في هذا المنحى – في تعرفه على الديار وتحيته الربع – زهير بن أبي سلمى الذي قال:

فلما عرفت الدار قلت لربعها
ألا عم صباحًا أيُّها الربع واسلم

يقول العلامة : محمد أبو موسى معلقًا على بيت زهير : "إن هذا البيت مؤذن بأنه ختام أو مقطع هذا الفصل؛ لأنه دال على انتهاء مرحلة ، وطيَّ

الأمر الثاني في نداء الخل الوفي: وهو عند "علي شوقي" كالكبريت الأحمر، إلا أنه هنا له حظوة عند الشاعر، الذي يبادله المودة والوداد؛ لذا قال له: " ويا أيها الخل الذي أنا خله"؛ ليشير إلى روح المودة التي تنشر غلالتها الصافية الضافية بين الخليلين المخلصين، في غير ضغن أو شحناء، ولذلك؛ فإن الشاعر يفتديه بروحه، ويدخره لشدائده، وإن كانت المسافات بينهما اليوم بعيدة، والمرامي واسعة، إلا أنَّ جسور الوداد بينهما قائمة، وأزاهير الوصال لديهما متفتحة، وورورده منتثرة: "فديتك من خل وإن كنت نائيًا".

الأمر الثالث في النداء على الواشي: الذي دبت عقارب الحقد في صدره، وسعت قنافذ السعاية في نفسه، فقتلت كل وداد، وأهلكت كل رشاد، وعكرت كل صفو عند الشاعر على كره منه، وكلما قدح غبارُ مكائد أحداثه ذاكرةَ "علي شوقي" كلما رفع حِدَّة الدعاء عليه في نفور، ولهجت نفسه بالويل والثبور، والهلاك والبور... "فلا عدت ثانيًا".

ويعلل "علي شوقي" لهذا الغيم الجاثم على نفسه، والحزن المخيم على صدره، والضيق الذي جعله يجأر بهذه النداءات المدوية على الربع والصديق والعدو بقوله:

كفى لوعة أني على البعد أرتجي
لقاء حبيب لا يود التلاقيا
يصبحني همٌّ وأمسى بمثله
فأبكي وهل يجلو الهموم بكائيا[١]

وحري بنا أن نشير إلى تأثر علي شوقي الواضح بالشاعر الأموي "مالك بن الريب" في مرثيته الرائعة التي بكى فيها نفسه، وتذكر قبره، ورجا أصحابه ونسوته أن يندبوه بعيون دامعة، وقلوب فاجعة[٢].

وملامح التأثر بين "علي شوقي" و "مالك بن الريب" واضحة، من حيث جو القصيدتين وملامحهما، وألفاظهما، وأساليبهما، ووزنهما، وقافيتهما، وبعض مواقفهما.

وليس بغريب أن يقتفي "علي شوقي" خطا السابقين، فهو الذي قرأ التراث الأدبي قراءة واعية، وتأثر بشعرائه، ونسج على منوالهم على نحو ما أسلفنا في التعريف به، حتى عَدَّه "العقاد" – رحمه الله– امتدادًا رائعًا لمدرسة "الشريف الرضي"، من حيث الشكل والمضمون[٣].

يقول " مالك بن الريب":

تذكرت من يبكي عليَّ فلم أجد
سوى السيف والرمح الرديني باكيًا[٤]

إلى أن يقول:

أقول لأصحابي ارفعوني لأنني
يقر بعيني أن سهيل بدا ليا[١]

صفحتها، فقد عرف الدار وحياها ، ودعا لها بالسلامة ، ولم يعد له فيها حاجة..."
الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء صـ٣٥١ – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ– ٢٠١٢م.

(١) ديوان علي شوقي صـ٥٣ .

(٢) تنظر المرثية في جمهرة أشعار العربي لأبي زيد القرشي صـ٣٤٧ إلى صـ٣٥٣ شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ / عاي فاغور.

(٣) ينظر مقدمة ديوان علي شوقي ما قاله العقاد عنه ص ح – ي .

(٤) جمهرة أشعار العرب صـ٣٤٨.

حتى يقول يخاطب زوجة "أم مالك":

إذا متُّ فاعتادي القبور وسلمي

على الرَّيم أُسقيت الغمام الغواديا[٢]

وهذا البيت وغيره شاهد على تأثر "علي شوقي" " بمالك " بل إن شطره الثاني يوافق ما قاله " علي شوقي" في قصيدته التي معنا. يقول "علي شوقي" في بكائه الربع:

سأبكيه حتى يشهد الغيثُ أنني

بكيت فأفحمت السحاب الغواديا[٣]

إلا أنه من الإنصاف القول باختلاف الغرض لدى الشاعرين: "فعلي شوقي" يبكي ديار أحبته وربع محبوبته، ويخاطب صاحبيه أن يدعاه وشأنه، ويذهبا عنه بعيدًا، على نحو ما بينا من قبل، بينما "مالك بن الريب" يرثي نفسه ويبكي موقفه، ويستأنس بصاحبيه، ويوصيهما أن يرفعاه برابية، وأن يبقيا معه، يؤنساه في وحدته ووحشته.

وتلاقي بعض الكلمات والأساليب والعبارات والأفكار بين الشاعرين، يشير كلها إلى تأثر "علي شوقي" "بمالك " من مثل قول "مالك" : "على الرمس أُسقيت السحاب الغواديا[٤]، وقول "علي شوقي": " بكيت فأفحمت السحاب الغواديا" ، كذلك بعض الأفكار التي وردت عند "مالك" في مرثيته، رددها "علي شوقي" بأسلوب آخر؛ فمالك يقول:

أجبت الهوى لما دعاني بزفرة

تقنعت منها أن ألام ردائيا[٥]

فهو يتحدث عن العشق والهوى، وتذكر أحبته في هذا الموقف العصيب، و"علي شوقي" أيضًا في بكائه على ربع أحبته يقول متحدثًا عن سلطان الهوى وهيمنته:

دعاني وشأني واذهبا حيث شئتما

فيقضي الهوى بالصب ما كان قاضيا[٦]

ولا يفهم من هذا التأثر أن نرمي "علي شوقي" باللوم، أو نغض من شاعريته، أو نعتبر البكاء على الأطلال عنده من إبداعاته الشعرية المعيبة ؛ باعتباره من شعراء العصر الحديث، كلا فبعض أعلام الشعر الحديث، وقفوا على الأطلال؛ لأن "بكاء الأطلال ليس عيبًا ولا نقيصة، ولكنه استجابة لتجربة، قد تكون ذاتية شعورية يرغب الشاعر في التعبير عنها، وقد يكون نتيجة لعملية إسقاط انفعالي في لحظة من لحظات الاضطراب النفسي الشعوري، فيجد هذا الغرض متنفسًا تعبيريًا له[٧].

وهكذا كان "علي شوقي" يتنفس عند نكباته العاطفية من خلال النوح والبكاء على

---

(١) السابق صـ٣٤٩ .

(٢) السابق صـ٣٥٢.

(٣) ديوان علي شوقي صـ٥٢، والغوادي جمع غادية وهي السحابة تنشأ غدوة.

(٤) هذا في رواية الأمالي للقالي أبي علي القالي البغدادي ١/١٦٠.

(٥) جمهرة أشعار العرب صـ ٣٤٨.

(٦) ديوانه صـ٥٢.

(٧) بكائيات المدرسة الحديثة ، بحث للدكتورة عزيزة الصيفي في مجلة الزهراء كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة العدد الثاني والعشرون صـ١٢٩٤ الجزء الثاني مارس ٢٠٠٤م.

الأطلال، وذكر ديار الحبيبة، ومزج هذا كله بشوقه واجترار أحزانه في ماضيه وحاضره. يقول من قصيدة "وقفة على طلل" :

عدتك كرائم الديم الغوادي

فيا لله من دمن صوادٍ

مجاهل ما عرفناهُنَّ إلاَّ

بتحنان النجائب والجياد

غدون مجر أرسان السوافي

وقبلاً كنَّ مرعى للوداد[١]

وهي افتتاحية رائعة، ضاربة بطنبها في الموروث القديم، وكأني بصاحبها قد رجع إلى زمن "امرئ القيس" ، أو تنفس أنفاس "طرفة بن العبد" أو استحضر شخصية "الأعشى الكبير"، أو غيرهم ممن أمعنوا في الوقوف على الأطلال، ومخاطبة الدمن الصوادي، التي نادها أيضًا ودعا لها "علي شوقي" في مقدمة قصيدته أن يسقط الله عليها شآبيب المطر، طالما وقف الشاعر عليها متحسرًا بعد أن انقطع عنها الغيث زمنًا طويلاً، وكأنه لا يستطيع الوصول إليها؛ لأنها تحولت إلى مجاهل بعيدة، ومفاوز قاحلة ما عرفها الشاعر إلا بتحنان النوق النجيبة، والجياد السريعة.

مجاهل ما عرفناهن إلا

بتحنان النجائب والجياد

غدون مجر أرسان السوافي

وقبلاً كن مرعىً للوداد

وهي صورة رائعة، رسمها الشاعر من مخيلته اللاقطة للأطلال والدمن، التي غدت قاحلة تسفيها الرياح وتذريها من كل جانب، ومن قبل ذلك كانت آهلة بأهلها، عامرة بالوئام، ومرعى للوصال والوداد.

ولقد سافر "علي شوقي" من خلال هذه الصورة إلى الزمن البعيد؛ فاستحضره بكل طاقاته وألوانه وحركاته، ونقل إلينا مناخه وجدبه وشظفه وفيافيه، واستدعى الرياح التي تضربها من كل جانب عبر مسافات مترامية لم تكن لتصل إليها النجائب أو تقطعها الجياد لولا تحنان ساقها، وحنين دفعها، وشوق حداها، وغزَّ سيرها، ولولا ذلك كله ما استطاعت بلوغها، وما عرفت لبعدها طريقًا، ولا اهتدت إليها سبيلاً.

ولا يزال "علي شوقي" يرسم بريشته الدقيقة الدمن التي بلغتها النجائب، ليقف الشاعر بها منشرحًا راضيًا يقول:

وقفت بهن منشرحًا كأني

أسوف الطيب من غدر جعاد

أردد ذكر أيام تولت

فيحلو كالغناء المستعاد

أحييهن عن قلب عميد

ودمع العين لجَّ به التمادي

وهي صورة وادعة ينشرح صدر القارئ معها انشراح قلب الشاعر لها، وهو يقف بهذه الأطلال التي كانت مرعى الود، ومنبت الأنس.

ولقد استشعر "علي شوقي" كل هذا، مستعيدًا ذكر أيام جميلة تولت وانقضت، ولكن مع انقضائها ومضيها، استطاع أن يعيدها مرة ثانية، واستحضرتها مخيلته بعبقها وأنسها، فأصبح وكأنه يشم عطرها من غدران متجمدة الماء، باردة السطوح، لهبوب النسيم عليها من

(١) ديوان علي شوقي صـ ٢٢ .

كل جانب، وذلك في قوله: "...كأني أسوف الطيب من غدر جعاد" ، وهي صورة جميلة رائعة صورت – في اقتدار – عبق الدَّمن، وشذى الطلول محترزًا – مع هذا العطر الفواح – بسكون الديار، وتجمد حركتها، وتوقف دورتها التي رسمها الشاعر تمامًا كالغدر المتجمدة، التي تبدو للعين ساكنة هامدة، بينما في الحقيقة يتضوع المكان بشذاها، ويفوح بعطرها.

ولئن كانت هذه الصورة قد استرعت النظر، واستهوتْ الأنف بطيبها المنشور وعطرها المتضوع، فهناك أخرى تالية لها ومكملة قد استهوتْ الأذن، فكانت مع سابقتها لوحة سمعية بصرية لذيذة الواقع سلسة الأنغام، كالغناء المستعاد. يقول "علي شوقي":

أردد ذكر أيام تولتْ
فيحلو كالغناء المستعاد
أحييهن عن قلب عميدٍ
ودمع العين لجَّ به التمادي

وما أجمل الغناء المستعاد، الذي يتلذذ الإنسان بترديده، وينتشي بترجيعه، ويأنس بمقاطعه وصوره، كلما أحس بوحشة، أو أصيب بغصة، ومن ثَمَّ فإن "علي شوقي" يذكر أيامًا خلت، وذكريات تولت، فتحلو في خاطره، وتحضر في ناظره، وتترسم في مقلتيه، وتتمازج أصواتها في مسمعيه، فيأنس بها ويسعد، سعادة من يرجِّع أنغامًا، ويستعيد أنسًا بعد وحشة، وطمأنينة بعد خوف ورهبة، ويرسل إلى هذه الدمن تحايا فؤاده الخافق، وقلبه العميد، ودموع عينيه المنهمرة في استرسال وجريان لا ينقطعان.

وغير خفي على ناظر، اهتمام "علي شوقي" الواضح بالدمن وأيامها التي خلت، وأزمنتها التي انقضت، والذي يحاول شاعرنا – في تجلد ووفاء – استرجاع ذكرياتها، وهو في كل ذلك يرجو – متلهفًا – أن يُحدث مصالحة لرأب صدعه الواسع بين زمان جميل مضى، وواقع مسيء حلَّ به، وضاق معه، وهذا من خلال عرضه الماضي والحاضر بأسلوب هادئ، ولغة باكية شفيفة رفيفة.

يقول:

فإن تراها ازدهت بدمي ودمعي
فكم كانت تعصفر بالجسادِ[1]
وإن عاث الزمان بهنَّ جهلا
فقد أخنى على ذات العماد[2]
وإن يطرف ثراها الآن طرفي
فقبلا شاق آناف الأعادي
وإن تسمع نعيب البوم فيها
فما ترجمن إلا عن فؤادي
إذا ذهب الزمان بأي حال
فدون رجوعها خرط القتاد[3]

---

(1) تعصفر بالجساد أي : تصبغ بالجساد وهو الزعفران صبغ شديد الصفرة، ومنه ثوب مجسد ، إذا صبغ بالزعفران . اللسان (جسد).

(٢) قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ ﴾ سورة الفجر الآيات من (٦: ٨).

(3) مثل عربي يضرب للأمر الذي يستحيل حدوثه، ويستبعد تحقيقه.

فمن لي بالشباب وأين مني
شباب أعجلته يَدُ النقادِ
أيا عهد الهوى لو كنت تُفْدى
فديتك بالطريف وبالتلاد[١]

وهو بكاء المعتبر، وحزن المتدبر، ومرارة المتأمل في تغيرات الزمن، وتناقض أحداثه، وتبدل أدواره، فكم كانت أيامه مزدانة، مزينة بالحلى والحلي، مثلما هي اليوم لما أن رأته، وقد ازدهت بدمه ودموعه فتهللتْ وتزينت، ولكن سرعان ما اصطدم هذا الحلم بصخرة الواقع، فحطمت الآمال، وهشمت الأحلام، وتكشفت الديار والأيام عن وجه حزين، وواقع أليم، فقد غالها غول الزمن، وعاثت بها ذئاب الليالي، وأخنى عليها الذي أخنى على لُبد، وأصابها ما أصاب "إرم ذات العماد"، وسمع بها وبأرجائها نعيب البوم الذي يدل على الخراب والدمار، وما نعيب البوم في وجدان الشاعر إلا صدى لأحزانه المحترقة على ديار أحبته، وأيام شبابه، وسنوات عشقه، فأصوات البوم في جنبات الديار المفقرة ترجمان صادق لفؤاده، ولسان فصيح ناطق بأحزانه وأشجانه:

وإن تسمع نعيب البوم فيها
فما ترجمن إلا عن فؤادي

ويؤكد الشاعر استحالة أن يرجع الزمان ما فات بـ"إذا " التي تدل على الشرط والحزم قائلاً:

إذا ذهب الزمان بأي حال
فدون رجوعها خرط القتاد

وهو مثل عربي استدعاه الشاعر من ذاكرته التراثية؛ ليدلل به على الحسرة التي لحقته، والكآبة التي حلت به، فزلزلت أيامه بشباب قد انقضى، وشيب قد حل، بعد أن ارتحلت أيام صباه على عجل، وتبدلت سحبًا غائمة، وحسرات قائمة، وأنفسًا قاتمة، وأنَّى لشبابه أن يعود، ولو كان أمل في عودته، ورجاء في فدائه لافتداه الشاعر بطريف ماله الذي حصله في حياته، وتليده الذي ورثه عن آبائه وأجداده ولكن لن يعود البتة.

وهكذا صور "علي شوقي" الأطلال والدمن، ووقف عليها باكيًا ونادبًا ومرجعًا ذكرياته مع حبيبته، ومصورًا أحلامه مع معشوقته، يوم أن كانت آهلة بأهلها، ريانة بساكنيها، فواحة أنسًا وحبًا وعطرًا؛ لكنها أصبحت من بعدهم قفرًا يبابًا، أخنى عليها الزمن، كما أخنى على من قبلها، فأمست مرتعًا للوحوش، لا يسمع فيها إلا نعيب الغربان، ونعيق البوم.

وكأنَّ الطلل والدمن التي تحدث عنها "علي شوقي" كانت صورة لنفسه المحطمة، ومعادلاً موضوعيًا لروحه المعذبة، ومرآة صادقة لذاته التي تهدمت تهدمًا؛ فلقد انفض من حوله الأهل والأصحاب، والأنس والشباب، كما انفضوا من حولها تمامًا بتمام.

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر استحضر عبق الماضي من خلال مناجاة الربع، واستلهم من شعراء الأطلال إخلاصهم وتفانيهم في وقوفهم على أماكن الحبيبة ومنازلها ومناطق لهوها، ومراتع أنسها، وجعل من كل

---

(١) الطريف والتلاد : المال الذي يكسبه الإنسان : إن كان من كسبه فهو طريف ، وإن كان من إرث أبيه فهو تليد. ينظر اللسان مادة (طرف وتلد) ، والمعنى : فديتك بكل مالي طريفه وتليده. والأبيات في ديوان علي شوقي صـ٢٣.

هذا صورة صادقة تعكس آلامه وأحزانه، وهمه وغمة، وأحاسيسه وآماله تجاه الحب والحبيبة، والكون والحياة، وهو في استحضاره عبق الماضي في إبداعه قد استطاع أن يضع لنفسه قدمًا راسخة في هذا الباب، تأثر وأضاف، لا ليمسخ مَنْ سبق، بل ليبدع إبداعه ، ويسمو سموه في نظم المعاني، وتفتيق الأفكار، ولربما وصل " علي شوقي" إلى معان وصور لم يتسنمها أو يصل إليها شاعر سبقه أو تقدم عليه، وهذا سيتضح من خلال التحليل والعرض في الصفحات الآتية من البحث ، والتي قد تسلمنا إلى موازنة بين شاعرنا وشاعرٍ آخر، موضحين من خلالها جوانب إبداعه، ونقاط تميزه وتفرده، أو فرائد صوره [١].

الفصل الثاني

الغزل ووصف الجمال وبيان أحوال الحبيبين

يُعَدُ "علي شوقي" من الشعراء الذين ضربوا بسهم وافر في الحديث عن الحب والعشق والغرام والجمال، ووصف احوال الحبيبة والمحب، كما أظهر صورًا رائعة، وخيالات جميلة، ومعاني جديدة وفريدة في الغزل، بعضها قد سبقها إليها غيره، وكثير منها أبدعها من خياله، ومتحها من ذاكرته، ونحتها ورسمها من سماء عالمه الشعري الواسع بمداد قلبه، ونقشتها نفسه الشفيفة، ونبعه العاطفي المتفجر.

ولقد تغزل "علي شوقي" في الجمال وتأمله، واستوقفه الحسن، وسباه الدلال، فأمَّل في المعشوقة تارة، وتارة أخرى يبثها يأسه وحنينه وحزنه، ويشكو إليها حرمانه وتبرمه، وهو في كل حال يحمل بين جوانحه قلبًا رومانسيًا معذبًا، وكبدًا حرَّى، ودمعًا سخينًا، وليلاً طويلاً؛ بيد أن الهوى في كل أحواله قد فرض عليه سلطانه، ونشر ريطته، وبسط ملاءته، فأصبح بين يديه ضعيفًا لا يستطيع مقاومته، عذريًا نحيلاً لا يقوى على مدافعته، ولا ينتوي مفارقته؛ لأنه سعيد بهيمنته، مستأنس بمصاحبته، حتى ولو عصف بجوانحه الرقيقة، أو هفا بقلبه الخفاق، على حد تعبير أحمد محرم:

عصف الهوى بجوانح المشتاق
وهفا الحنين بقلبه الخفاق

---

(١) وذلك مثلما وازنا بين " علي شوقي " و" مجنون ليلى " في تصويرهما القلب ليلة فراق المحبوبة وغيرها كثير من الصور المنثورة في ثنايا البحث . ينظر: الفصل الثاني من البحث .

ما يفعل القلب الطروب إذا الهوى
بلغ القرار وجال في الأعماق[١]

ولعل في صفحات هذا البحث تجلية واضحة لكل هذه المواقف، وتفسيرًا أدبيًا، وتحليلاً فنيًا يشرح المعنى، ويعلل أسرار التعبير، ويكشف التصوير كشفًا يقدر الإبداع، ويحقق المتعة عند المتلقي، مثلما كانت عند المبدع ساعة توهجه وإبداعه، آملين أن يكون الناقد في درجة المبدع أو يزيد؛ ليسبر أسرار إبداعه، ويدرك مكامن فرائده.

يقول "علي شوقي" يخاطب دولة الحسن:

أيجمل بي يا دولة الحسن أنني
أكلف مالا أستطيع من الصبر
وأني كما شاء الغرام وشئتمُ
وأنتم كما شاء العذول فما وزري
وحسبي من دهري رضاء أحبتي
وناهيك شيئًا كان حسبي من دهري
ولو ضاع باقي العمر في حب فاتني
أسفت ولكن للذي فات من عمري[٢]

ويلفت أنظارنا، ويسترعي انتباهنا افتتاح القصيدة بسؤال مستضعف، موجه إلى دولة ذات سيادة، وقدرة وهيمنة ومكانة ونفوذ؛ ليس لها سلطان إلا على المهج والقلوب والمشاعر والأفئدة، وحسبها من ذلك قوة وسيطرة، إنها "دولة الحسن" ، دولة الجمال، دولة الألم اللذيذ، والشقاء المستعذب، والوجع الهنيء، والسحر الحلال.

ولعل "علي شوقي" بقصيدته هذه يدخل ضمن من جعلوا للحسن دولة في تعبيره الرائع، وسؤاله اللهيف في شطره الأول من صدر قصيدته، ومغزى سؤاله أنه يبث شكواه، وينثر ضعفه أمام "دولة الحسن"، في كونه لا يستطيع مكابدة البعاد، أو تحمل الصبر الذي أذواه وأضناه، وأقض مضجعه وأشقاه؛ وذلك لأنه سار على خطى الغرام، متمسكًا بتلابيب الحسن، يمشي في ظله، ويتبع خطاه، لكن الحبيبة لا تقابله هوى بهوى، ولا تبادله الغرام شغفًا بشغف، وإنما أتى الأمر على نحو ما يتمناه العذول، ويرتجيه الواشي، ويوده الحاقد، من شتات وعناد، وفراق وبعاد من غير جريرة ارتكبها الشاعر، أو وزر اقترفه، وذنب جناه، اللهم إلا كونه عاشقًا، يقدر دولة الحسن: "وأنتم كما شاء العذول فما وزري؟"

ومع كل هذا الحرمان الذي كابده "علي شوقي" فإنه حريص على رضاء أحبته، يكفيه هذا الرضا من دهره ، ويملأ نفسه سرورًا، وروحه حبورًا:

وحسبي من دهري رضاء أحبتي
وناهيك شيئًا كان حسبي من دهري

وهو في هذا الأمر ينحو منحى "العذريين" الذين يكتفي الواحد منهم برضا المحبوبة عليه، ولو كلفه ذلك مكابدة البعاد، ومجاهدة السهاد، غير أن الشاعر آسف على عمره المنقضي، وزمانه المنصرم. يقول:

---

(١) ديوان أحمد محرم صـ١٣٢ من قصيدته المشهورة "رحلة عابسة" مكتبة الفلاح – الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .

(٢) ديوان علي شوقي صـ ٩.

ولو ضاع باقي العمر في حب فاتني
أسفت ولكن للذي فات من عمري
عتبت فما كان العتاب بنافعي
ولكنه أدى إلى سعة الهجر
كتمت غرامي والدموع أذعنه
فياليت شعري ما لدمعي والسر
ستبقى لكم في القلب خير مودة
أعيذُ سناها بالتكتم من أمري
أعززها ما شئت بالصبر والأسى
ومن بعد موتي سوف تدفن في قبري[1]

وفي عتابه على هجران أحبته له غصة ومرارة؛ لأن عتابه زاد الهوَّة، ووسع دائرة الهجر بينه وبين من يحب؛ فارتضى العتاب بدلاً عن كل هذا الكتمان، وآثر التخفي والتجلد وإظهار القوة، إلا أن دموعه – كأي محب – فضحته، وأذاعت هواه، ونشرت عطر غرامه، وعرف هيامه بين العدو والحبيب معًا، وليتها ما فعلت، فما لها أظهرت ضعفه، وبينت جزعه، وكان يود – لولاها – أن يكشف عن تجلده وصبره، وعدم اكتراثه وحزمه؛ لكن "المحبين كالمرضى يهذون بما يسرهم"[2].

ويختتم "على شوقي" قصيدته بتجديد عهد الوفاء، وبسط سلطان المودة التي ستبقى للحبيب، يشع نورها في قلبه، ويزكي سناها فؤاده، مستعينًا على كل هذا بالكتمان والصبر والتكتم، خوفًا من الوشاة في حياته، وأما بعد مماته فإن مودته معه، تنير جنبات قبره، وتدلل على وفائه وإخلاصه، وشريف قصده لمن تعشقها:

ستبقى لكم في القلب خير مودة
أعيذ سناها بالتكتم من أمري
أعززها ما شئت بالصبر والأسى
ومن بعد موتي سوف تدفن في قبري
ولئن كانت الدموع المنهمرة من عين "علي شوقي" تفضح حبه، وتكشف لوعته أمام حاسديه، والحانقين عليه، فإنه ثمة أمورًا أخرى تنم – بوضوح – عن شوقه ومهجته، منها: ضعفه ونحوله وهزاله وشحوبه، وهو مسجور العواطف، متصدع القلب، ظمآن الفؤاد. يقول:

ألا من لقلب لا يبل غليله
وداء غرام لا يبل عليله
فمن كبد حرى ترقى زفيرها
ودمع سخين ليس يرقا همولة
وما كل شاك عامر القلب من جوى
ولا كل باك غاب عنه خليله
فلله صب أنزل القلب همه
وبالرغم منه أن يذم نزيله
أراد ليخفي ما به من عداته
فنمَّ عليه ضعفه ونحوله[3]

والأبيات تكشف عن قلب متصدع، وكبد حرى، ودمع سخين، نحى فيها "علي شوقي" منحى العذريين، هؤلاء الشعراء الذين أضناهم الحب، واعتصرهم البعاد، وآذاهم النأي

(١) ديوان علي شوقي صـ ٩.

(٢) من أقوال جريمي كولار. ينظر كتاب: وقالوا في الحب – خالد اللحام صـ٢٤، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م – المؤسسة اللبنانية العربية – بيروت .

(٣) ديوان علي شوقي صـ١٣.

والأسى؛ فتصدعت أفئدتهم، وتفتتت أكبادهم حسرات على فراق الأحبة، وبعاد الحبيبة[١].

ولقد عنون الشاعر لها بكلمة "غليل"، وهي المعاناة الكبرى للشاعر المعَنَّى، الذي أراد أن يستتر من أعدائه، ويتوارى من خصومه؛ خشية الشماتة، وحذر التشفي، بيد أن ضعفه – من الحب والبعاد – فضح أمره، وأذاع سره، ونَمَّ عليه نحوله وذبوله، وهكذا شأن المحبين، ودأب العاشقين، الذين شفهم الضنى، وأشفق عليهم الأعداء قبل الأصدقاء، وشعاره كما قال العذري "قيس بن الملوح العامري" يخاطب "ليلى":

وأنت التي ما من صديق ولا عدا

يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا[٢]

وما فتئ "علي شوقي" يظهر جوانب ضعفه الوجداني حيال أحبته، وينثر أطياف خيالاته تجاه من يتعشق، متحاشيًا عذاله ولوامه، مشفقًا على نفسه منهم. يقول:

وما عذره وهو المذيع لسره

إذا لجَّ في لوم ولؤم عذوله

لي الله ما ينفك قلبي كأنه

يتيم بأحضان الهموم تعوله

فمن لي بخدن لا يرى الوصل سُبَّة

وجدٍّ متى يعثر يجد من يُقيله[٣]

ويلفتنا في الأبيات الثلاثة التي ختمت القصيدة حديث الشاعر عن غائب عاشق "وما عذره" مع أن "علي شوقي" يتحدث عن نفسه هو، ولكنه آثر أسلوب الغائب إظهارًا للشفقة على نفسه، وإبرازًا للوعته، وتجسيدًا للغيبة والتخفي والانكسار الذي أصابه من وراء إذاعة سره، وإفشاء حبه، بواسطة دموعه تارة، وتارة أخرى – كما تحدث هو – بما اعتراه من ضعف ونحول بينهما واش متربص، وحاقد متلصص، وعذول متجسس يلج في اللوم واللؤم معًا، ويرمي شاعرنا الرقيق بنظرات شامتةٍ، ويسلقه بألسنة حداد؛ تقريعًا وذمًا " ولن تعدم الحسناء ذامًا"[٤].

وما أشد قسوة العذول عندما يصيب فرصة من محب، أو يتمكن من مقاتل عاشق، إنه – بلا شك – سنانه قاسٍ، وسيفه ماضٍ من غير رحمة، ويرحم الله المجنون عندما قال:

(١) المحبون يذكرون القلب والفؤاد والكبد عند ذكر الهوى والعشق والمحبة... دون الطحال وغيره من الأعضاء؛ لأن المغرم يجد في القلب والفؤاد والكبد حرارة لا يجدها في غيرها من الأعضاء؛ ومن ثم ذكروها في هذا الباب، واستهجنوا ذكر الطحال وغيره. ينظر في هذا : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء صـ٧١، ٧٢ للمرزباني – تحقيق وتقديم محمد حسين شمس الدين – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م.

(٢) ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوح صـ١٣٢– جمع الإمام أبي بكر الوالبي – تحقيق : محمد إبراهيم سليم – دار الطلائع ٢٠٠٥م. .

(٣) ديوان علي شوقي صـ١٣.

(٤) مثل عربي قالته " حُبَّى بنت مالك" – وكانت جميلة – ترد على زوجها الذي أنكر منها رُويحة مع فائق جمالها . ينظر: الفاخر للمفضل بن سلمة بن عاصم صـ١٥٥ العدد ٣ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م .

وعاذلتي تقطعني ملامًا

وفي زجر العواذل لي بلاء[١]

وبين الدموع المسجومة، والضعف الملحوظ، والحرمان الدائم الذي حلَّ " بعلي شوقي" من وشاة حاقدين، ورقباء شامتين، ومحبوبة بخيلة، ومعشوقة مفارقة، يصير قلب الشاعر هواء، ويصبح فؤاده فارغًا، إلا من همه وحبه، حتى أوقف الشاعر قيثارة شعره على إظهار شوقه، وإبراز عشقه وتصوير آماله، وتجليه آلامه، وبيان أحوال محبوبته التي صدت وفارقت، وهيمنت وتعطفت، وهجرت وواصلت، والشاعر معها يتقلب على نيران الهجر، وهجير الفراق؛ فنراه يُسكره الحب، ويُؤيسه الصد، ويصرعه العشق، ويقعده السُّقم، وتتحطم أحلامه على صخرة أعدائه الصلبة.

وفي الصفحات التالية بيان لكل هذا، وعرض مفصل لأحوال المحبوبة والحبيب.

- العرض الأول: بيان أحوال المحبوبة، وهي على النحو التالي:
- أولاً: المحبوبة البخيلة : وهي محبوبة يدلف الشاعر "علي شوقي" من خلالها إلى ساحة العذريين، الذين عرفوا بحرمانهم، وبخل محبوباتهم عليهم، وتمنعهن عن الوصال، واخلافهم كل وعد، ونقضهن كل عهد.

ولقد ظهر كل هذا في عشقه، حتى أطلق عنوان "البخيلة"[٢] على إحدى قصائده؛ إلماحًا إلى معاناته، وتوجيهًا نحو أزماته.

يقول علي شوقي:

ألا شَدَّ ما ضنت بمعروفها سعدى

فما أبرمت عقدًا ولا أنجزت وعدا

تقطعت الأسباب بيني وبينها

وأخشى لطول العهد أن ينقض العهدا

ومن عجب أني عليها محسدٌ

وما أنا منها في مراح ولا مغدى

كأن لم تجد بُدًّا من الهجر والقلى

على أننا لم نلق من وصلها بدا

تمن علينا أن هدتنا لعشقها

فيا لضلال الحسن يهدي ولا يُهدى

وما نلت منها يعلم الله نائلاً

سوى زفرة بين الترائب لا تهدا

وذكرى إذا هبَّتْ رخاء رياحها

على أجة الأحشاء زادت بها وقدا[٣]

وهذه القصيدة في مجموعها زفرة حارة أطلقها "علي شوقي" من حنايا صدره، تحمل شكاية من هذه البخيلة "سعدى" تلك الضنينة بكل معروف، المخلفة لكل وعد، الناقضة لكل عهد، المقطعة لكل أسباب الوصل، وحبائل القرب، ومع هذا كله فإنَّ الشاعر مُحَّسدٌ ومحقود عليه بذكرها عنده، مع انقطاع وصالها له، إذْ لا يروح معها ولا يغدو بها البتة.

وكأنى بـ "سعدى" لم تجد بُدًّا من الهجر والقلى – مع ضنها وبخلها –؛ لذا راحت تصدر في بعادها، وتشرع في نأيها، وتتيه بدلالها، وتتدل في ترك وصلها، وتَمُنُّ

(١) ديوان مجنون ليلى صـ٤٤.

(٢) ديوان علي شوقي صـ١٠٤ قصيدة البخيلة .

(٣) ديوان علي شوقي صـ١٠٤.

على شاعرها بالعشق، وتتفضل عليه بالحسن، الذي يهدي كل راغب فيه إليه، ويميل كل مشدوه به نحوه، ولكن الحسن هذا في الوقت ذاته لا يُهدى إلى أحد، ولا يُمنح إلى عاشق تيهًا وعجبًا.

وعجيب كل العجب أن يَعُد "علي شوقي" زفرة شوقه لسعدى نائلاً ناله، وذكراها التي تهب على أحشائه عطاءً حصَّله، وهو دليل يدل على شدة بخلها ومنعة حصنها:

وما نلت منها يعلم الله نائلاً
سوى زفرة دون الترائب لا تهدا
وذكرى إذا هبت رخاء رياحها
على أجة الأحشاء زادت بها وقدا[١]

ومن الجدير بالذكر هنا أن الشاعر أراد من خلال هذا التعبير الدقيق – بذكر الزفرة والذكرى، وأنهما من النيل والعطاء – أن يدلل على ضنها عليه، وتمنعها وبعادها الذي لا يرجو منه وصلاً، ولا يرتقب معه قربًا، إلا بطيف الخيال الزائر للشاعر مع الليل، يزيده سهدًا، ويضنيه لوعة وتذكارًا وشجنًا.

ويا ليت طيف الخيال هَدَّأ من روع الشاعر، وخفف من غلواء هواه، ودلل بزيارته على علامات الرضا، وبسط ملاءة الوصل، ودمقس القرب ، كلا، وكان مُنى الشاعر أن يكون كذلك؛ لتنطفئ جذوة شوقه، وتخمد جمرة لوعته، وهكذا تمنى، لكن رسولها إليه ممثلاً في " الطيف " جاء على عكس كل هذا، فخيب الآمال، وأيقظ الآلام، وجدد المحن، واستحضر الإحن، وأخمد الأمل " فمن ذكر المنية نسي الأمنيَّة"[٢]. يقول:

ولو أنها مدت به سبب الرضا
شكرت لها ذاك الرسول وما أهدى
ولكنها قد أرسلته مزودًا
صدودًا فما أهدى سلامًا ولا ردا[٣]

ولقد أضاف "علي شوقي" هنا في صرح "طيف الخيال" عند الشعراء لبنة، وسدَّ ثلمةً، وشارك عالمه بلوحه في هذا العالم المنطلق بلا حدود؛ فلكم تحدث الشعراء من قبله عن طيف الخيال، فأولوه عناية خاصة، وذكر كثير منهم زيارته لهم، التي خففت من لوعتهم، وهدأت من ثورة عشقهم، وزفرة سهادهم[٤]، إلاَّ أنه عند "علي شوقي" على عكس ما تمنى، فقد زاره طيف خيال "سعدى" فزاده صدودًا، وأثقله قيودًا، وما أهدى إليه سلامًا ولا ردا؛ ولهذا فقد فُجِّع "علي شوقي" بفجيعتين في حبه:

- الفجيعة الأولى في يقظته: وهو هجران "سعدى" له، وتنكرها لأحاسيسه، وجفوتها بصرمها حبال وصله، وكأنها قد رأت بقاء ودها في صدودها وهجرانها؛ على حد قول القائل :

هجرتك لا قلىً مني ولكن
رأيت بقاء ودك في الصدود

(١) ديوان علي شوقي صـ١٠٤.

(٢) فرائد الخرائد في الأمثال لأبي يعقوب يوسف بن طاهر صـ٥٢١ – تحقيق د/ عبد الرازق حسين – طبعة نادي المنطقة الشرقية بالسعودية (الدمام) .

(٣) ديوان علي شوقي صـ١٠٥.

(٤) ينظر في أمثلة ذلك: طيف الخيال للشريف المرتضى صـ٦١، ٦٢، ٦٣ تحقيق حسن كامل الصيرفي – سلسلة الذخائر ٢٠٠٨م.

كهجر الحائمات الورد لما
رأت أن المنية في الورود[١]

- وأما الفجيعة الثانية فهي في منامه: حيث زاره طيف خيالها بغير ما يتمنى، وأهداه ما لم يكن يرجوه من صدود وهجران، شأن كل محب، وحال كل عاشق ، ولله در "قيس بن الملوح" عندما قال:

وإني لأستغشي وما بي نعسة
لعل خيالاً منك يلقى خياليا[٢]

وكأني بعلي شوقي أراد أن يتفرد عن كل محب، ويمتاز بفجيعته عن كل وامق، ويختص – عن غير قصد – بمزيد لوعة، وعظيم وجد، بيد أنه قد يئس من الوصال، وأيس من القرب، فطلب السلوان بدلاً من التحنان، ونشد النسيان عن التذكار، وتوخى كل هذا طلبًا لراحته، وبردًا لغلته، لكن دون جدوى. يقول:

وقد نبئت أني توخيتُ بعدها
سلوًّا فما أغنى قتيلاً ولا أجدى
أردت به بردًا لقلبي وراحة
فكان عليه لا سلامًا ولا بردا

وواضح أن "سعدى" محبوبة "علي شوقي" قد ملأها العجب، وبلغ بها التيه كل مبلغ؛ ولذا فقد كلمته بعد أن تضاحكت ثقة ودلالاً، مازجة هذا الضحك بحركة هزت فيها رأسها، مصحوبة بضحكات متكررة منها، مطلقة من نابيها دعاء غنجًا يرضي غرورها، ويرفع أسهمها عند محبها. يقول حكاية عنها:

فقالت وهزت رأسها وتضاحكت
ألا قاتل الله الصبابة والوجدا
أيزعم أنا قد تبلنا فؤاده
ويضمر من فرط الغرام لنا الحقدا
وما ذا عسى يجدي عليه هيامه
إذا كان لا نجزيه عن وده ودا
يظل بظهر الغيب يلهو بذكرنا
فيغري بنا للناس ألسنة لدَّا
ألم يأته أنا سلونا عن الصبى
وولى حميدًا لا نريد له عودا
ولم تبق إلا ذكريات تعودنا
فنزداد عن غيِّ التصابي بها رشدا[٣]

وواضح من هذا الحوار الرائع إبداع الشاعر ودقته وحنكته في إدارة "الحوار النُّسوي" الذي استطاع من خلاله أن يدلف إلى ساحة المرأة، ويسبر أغوار نفسها، ويسكن في حناياها مظهرًا دلالها وغنجها وثقتها التي صورتها تلك الصورة الحركية الرائعة، مازجًا فيها حركة رأسها، وضحكة ثغرها، قائلة في دلال المرأة: "ألا قاتل الله الصبابة والوجدا" منكرة – في تيه الحسناء ، وترفع البهكنة – عليه فساد قلبه من الحب، وإضمار الحقد من فرط الغرام:

أيزعم أنا قد تبلنا فؤاده
ويضمر من فرط الغرام لنا الحقدا

وهي بين هذا وذاك تطرح من الأسئلة ما يثير الشفقة على حبيبها تارة، وتارة أخرى –

(١) حياة الحيوان جـ١ صـ١٧٦ (أيل) ولم يذكر قائلهما – الطبعة الثانية ١٩٩٦م – كتاب الجمهورية.
(٢) ديوان مجنون ليلى ١٣٢.
(٣) ديوان علي شوقي صـ١٠٥، ١٠٦.

في مقابل هذا – تضفي على ذاتها هالة من الدلال، والترفع والتباعد، والزهد في العشق، والصد عن الحب، حتى خيَّل للسامع تماوت الشاعر وهلاكه وحسراته وآهاته وتمسكه وفنائه في حبه ونحوله وذبوله، وما أروع قولها في ثقة وشفقة:

وماذا عسى يجدي عليه هيامه

إذا كان لا نجزيه عن وده ودا

وأجمل منه – في توله المحب بها وهلكته فيها – قولها في تعالٍ:

يظل بظهر الغيب يلهو بذكرنا

فيغري بنا للناس ألسنة لُدَّا[١]

وكأنه هائم في محراب الحب، متعبد في ركن الغرام، لاهج – بظهر الغيب – بذكر الحبيبة؛ ليغري استغراقه في قدس أقداسه ألسنة حدادًا تسلقه، وتسل عليه سهام الحقد، وسيوف الكراهية. ولنتأمل جمال التعبير الشعري الرائع الدال على الاستمرارية في الحب، والتفاني في العشق عند الشاعر لمحبوبته، "يظل بظهر الغيب يلهو بذكرنا" ، ولنتأمل نون العظمة "بذكرنا" الدالة على الجمع مع أنها محبوبة واحدة ، إلا أنها – بِدِلِّها – كالمجموع هيمنة، وكالكل سيطرة، وكالكون شمولية ووجدًا .

ولننظر إلى هذا الاستفهام الإنكاري، الذي لا يُنكر على الشاعر عشقه، بينما يزيد من ثقة " سعدى " وضعف " علي شوقي " وانزوائه معها، وقد ذكرته بصيغة الغائب المفرد المتواري ضعفًا وانكسارًا في حبه وعشقه[٢]، بينما تحدثت عن نفسها هي بضمير الجمع، وبصيغة المتكلم المعظم نفسه يقول على لسانها:

ألم يأته أنا سلونا عن الصبى

وولى حميدًا لا نريد له عودا

ولم يبق إلا ذكريات تعودنا

فتزداد عن غيِّ التصابي بها رشدا[٣]

ويكفيها تعاظما وثقة أن ذكرياتها الرفيفة المتبقية مع شاعرها كانت كفيلة بإشعال نار الهوى عنده، وإلهاب جذوة عشقها لديه، والتي تعاودها فتزيد من غي التصابي في عهد شاعرها الجميل.

وواضح من سياق القصيدة أن " سعدى " لم تكتفي بما حدثت به عن شاعرها من وجد وصبابة، لكنها عادت ثانية فقالت بما جاء على لسان الشاعر في قوله:

وعادت فقالت إن لله دَرّه

فكم في الهوى أمسى يجشمنا جهدا

شكاني فأشكاني وكنت كظيمة

فيا ويح داء الحب سرعان ما أعدى

أجدَّ لنا ذكرى الهوى فكأنما

أجدَّ لنا من طيب أيامه عهدا[١]

---

(١) ديوان علي شوقي صـ١٠٦.

(٢) وهو في هذا على العكس من " عمر بن أبي ربيعة الذي يظهر في غزلياته ومغامراته تياها مدلاً، بينما تظهر محبوبته متماوتة في حبه، متهالكة في عشقه . ينظر في هذا : شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة للعقاد صـ٤٠ ، ٤١ – طبعة دار المعارف ١٩٦٤ سلسلة اقرأ.

(٣) ديوان علي شوقي صـ١٠٦.

وهي مع هذه الحالة وفي تلك الأبيات تكشف عن وجد أصابها، وشوق حركها، وهيام خالطها، وعشق شفها، وكأن داء الحب قد انتقل من شاعرها إليها، وسرعان ما انتشر بين جوانحها، فأنطقها بهذه الصبابة التي لم تكن تستطيع معها كتمان وجدها الذي خامرها، وكأن الشاعر في الأبيات هذه أراد أن ينتصر لحبه، أو أن تعتدل الكفة التي طالما مالت عنه؛ ليسلط شعاعًا – ولو يسيرًا – على شوق هذه البخيلة التي أنطقها شاعرها بالشكاية المحببة إليه، ممزوجة بأسلوب التعجب من إصراره وعزمه "إن لله درّه" في تدلل الأنثى، وتوله المعشوقة، وتغنج الغانية –بمقاطع منفتحة، وكلمات متكسرة، وجمل ناعمة – وكأنها هريرة صاحبة الأعشى في غنجها المشهور[٢]، "... فيا ويح داء الحب سرعان ما أعدى"، وكأنها كانت عن هذا الحب نائمة، أو متناومة طوال أبيات القصيدة، تاركة وراءها محبًا يحترق على جمرة العشق الملتهبة، ثم وبعد طويل حديث، وكثير وصف، وشديد ضعف من شاعرها، اعترفت بتحرك الذكريات في حناياها، وتحرق الأشواق بين ضلوعها، قائلة في فتور المحبين:

أجد لنا ذكرى الهوى فكأنما
أجد لنا من طيب أيامه عهدا
وكنت إخال الحب تذهب ريحه
إذا حكم الإلفان بينهما البعدا
وما زلت عنه أخدع النفس ضلة
وما زال بي حتى تجاوز بي الحدا[٣]

لكنَّ الهوى لن تذهب نسائمه بالبعاد، ولو حكم الإلفان بينهما هذا البعاد، لأنهما معه تتقد جمرة الحب في قلبيهما، وتتحرك مشاعرهما مع هبوبه إلى القرب والتلاقي والوصال.

ولا يملك "علي شوقي" بعد هذا التفاني في العشق والصبابة والشوق إلا أن يطلق صيحة استغاثة علها تصل إلى منصف في الحب ينصفه من هذه البخيلة قائلاً:

فهل منصف يقضي لنا من بخيلة
تهيم بنا حبًا وتهجرنا عمدا
أحبت وضنت بالوصال وأصبحت
لطول التصدي للجفا تألف الصدا[٤]

وهو ختام رائع، لخص في قليل كلماته كثير إشاراته، وجليل معانيه، فهل للبخيلة التي هامت به حبًا من رادع يردعها عن بخلها، ويرجعها إلى صوابها، وينتصف للشاعر المظلوم منها، إذ إنها مع حبها واعترافها تعمدت الهجران، واختارت النكران، وضنت بالوصال بعد حب، وآثرت النأي بعد قرب، وصدت كثيرًا حتى جفت وجافت وصارت من ميلها

---

(١) ديوان علي شوقي صـ ١٠٦.

(٢) في قول الأعشى حكاية عنها :

قالت هريرة لما جئت زائرها
ويلي عليك وويلي منك يا رجل

وقد عده النقاد أخنث بيت قالته العرب؛ لأن الأعشى نطق بلسانها وصور دلالها بكلمات غاية في الليونة لا تجري إلا على ألسنة النساء، والأعشى هنا هو الأعشى الكبير "ميمون بن قيس".

(٣) ديوان علي شوقي صـ١٠٦، ١٠٧.

(٤) ديوان علي شوقي صـ١٠٧.

للجفاء تعشق الصد وتألف البعاد والفراق، ولا نستطيع – مع هذه الطاقة الفنية المتفجرة – إغفال روعة السرد الشعري، والبناء القصصي في هذه اللوحة، والذي تنوع ما بين السرد الحكائي الذي اعتمد على صوت الشاعر "الراوي" في قصة معاناته وذكرياته في أزمنة ومواقف ، وبين السرد الحركي أو المشهدي والذي حاول فيه "علي شوقي" أن يوظف التعبير بالحركة بدلاً من التعبير المجرد من مثل قوله : "فقالت وهزت رأسها..." وقوله: "وعادت فقالت..." إلى آخر ذلك التصوير الممتع .

ثانيًا : المحبوبة المفارقة: وفراق الحبيبة والشكاية منه من الأمور التي شغلت شاعرنا كثيرًا، وأقضت مضجعه، ومن ثَمَّ فقد طفق من خلال أشعاره يعزف على نايه ألحان شوقه، ويذرف من مآقيه سحائب مدامعه أسفًا على فراق محبوبته، وهو في تصوير هذا الفراق لا يكتفي بالإلماح عنه إلماحًا، وإنما يقلب صوره على كل لون ، ويشقق أطيافه وألوانه وأحواله في كل حال، وكأنه يستعذب وصفه، ويستمرئ ألمه، ويستهوي حديثه وشجنه، ويأنس باجترار ساعاته يوم بَيْن الحبيبة. يقول من قصيدة "الفراق" :

إن الفراق وقيته لم يبق لي
إلا غياهب حسرة لا تنجلي
لو كنت أعلم قبلها أن الهوى
فيه الفراق لكنت عنه بمعزل
لم أنس يوم البين حيث مدامعي
تهمى كمنهل السحاب المسبل
لله موقفنا فلو شاهدتنا
لشهدت من شاكي السلاح وأعزل[١]

وفاتحة القصيدة دعاء للمخاطب من شر الفراق، وشفقة من الشاعر أن يصيب أحدًا ما أصابه من ضناه وأساه وحسراته الدائمة التي لا تنجلي أو تتوقف، فقال: "إن الفراق وقيته" وهي جملة غرضها الدعاء – كما قلت – للمخاطب، ومعناها وقاك الله مرارة الفراق، ونار البعاد، كما أنها تشير إلى إشفاق الشاعر من مغبة البين، وأضرار البعاد وآلام الفراق. ولو كان "علي شوقي" يعلم أن الهوى والحب يتبعه هذا البين لبعد عنه، واعتزل ساحة العاشقين سالمًا غير آسف عليه، لكنه وقع في شركه، واكتوى بجمره؛ فذبل عوده، وشحب لونه، وأصبح أعذلاً لا حيلة له.

ولقد أخذ "علي شوقي" – كما أسلفنا – يشقق الصور التي رسمها لنفسه ولمحبوبته، في حالة من الوجد والصفاء، وهي مشاهد لا تُنسى، ولا تنمحي من ذاكرته، وكيف وقد رسمت ملامحها الدموع، ولونت أشكالها المشاعر، وصبغتها الأفئدة من دمائها النجيعة!

وفي الأبيات التالية بيان لأشكال الصور.

●الصورة الأولى: صورة البين والدموع، يقول "علي شوقي" :

لم أنس يوم البين حيث مدامعي
تهمى كمنهل السحاب المُسْبل
لله موقفنا فلو شاهدتنا
لشهدت من شاكي السلاح وأعزل[٢]

وهي صورة تراثية، تدلل على أن الشاعر قد عب ونهل من تراثنا الشعري الزاهر؛ حيث

(١) ديوان علي شوقي صـ ١٧.

(٢) ديوان علي شوقي صـ ١٧.

صور دموعه المنهملة يوم الفراق أسفًا على محبوبته التي جدت في الفراق، وأصرت على البعاد، تنهل كسحابة آذنت بالمطر، وتصببت بالغيث، وسكبت ما تحمله من ماء بكل طاقاتها وتهتانها، ومن يشاهده "لله موقفه ودره ودرَّ محبوبته " يشاهد أمرين متناقضين، ومظهرين متضادين لشخصين عجيبين:

الأول: شاكي السلاح ويمثله المحبوبة المتصفة بالقوة والثقة والعزم والتماسك وهي ما عبر عنها بـ"شاكي السلاح، " وهو الفارس المدجج، والمحارب المتقلد أدوات الحرب غير آبه بأعدائه ولا مكترث بهم.

الثاني: الخائف المجرد من كل أدوات الحرب، وهو الشاعر "علي شوقي" ، الذي تعرى من كل قوة، وتجرد من كل عزم، وفقد كل تماسك؛ لأنه هو المهدد بالبين، المنتظر للفراق، ومن ثَمَّ فحاله حال الأعزل الخائف، ساعة مقابلته "شاكي السلاح " المدل بقوته وأسلحته.

ولعل في هذا التقابل والتضاد إبرازًا لحالة الشاعر، وتصويرًا لموقفه، وقد علته صفرة الوجل، وأقلقته لحظة الفراق، وساعة البعاد، ثم إنه قد وصل من الضعف مداه، بينما ظهرت محبوبته المفارقة في ساحة الوداع بحالة تدل على القوة والهيمنة تمامًا كشاكي السلاح.

الصورة الثانية : صورة الشوق المحفز للعناق، يقول " علي شوقي":

والشوق يحفز هامتي لعناقه

فكأنني مستسلم للمقتل[1]

وهي صورة مكملة للصورة السابقة، بل إنها صفحة من صفحات اللوحة الكبيرة التي رسمها الشاعر لحالته مع حبيبته المفارقة له؛ وقد نقش في جنباتها شوقًا جارفًا بأوصاف وملامح، يدفعه دفعًا، ويحفزه حفزًا نحو محبوبته، ناصبًا هامته لعناقها، مساقًا إليها بنار شوقه، مستسلمًا بسلطان مشاعره، مدفوعًا بأغلال حبه، وقيود وجده.

بيد أنه قد شبه حالته – والشوق يحفز هامته إليها – بحالة مَنْ استسلم للقتل؛ فمد عنقه، وأسلم قذاله، منتظرًا – على النطع – سيف القضاء، وضربة الفناء.

والحالتان متغايرتان، والجامع النفسي والتصور الذهني بينهما مختلف، ففرق كبير بين متحفز للعناق، ومستسلم للقتل، وإن التقتا من حيث الشكل في "مد العنق، وحفز الهامة" للعناق والقتل معًا، فلربما قصد الشاعر تصوير قيود شوقه الذي يحفز هامته إلى عناق محبوبته المفارقة، والتي فراقها له بمثابة القتل وانتهاء الحياة، ولقد صور هذا المشهد برجل مغلول مصفدٍ، سيق إلى حتفه مستسلمًا يائسًا من الحياة كلها، والوجه الجامع بين الصورتين قيود وأغلال تسوق إلى مصير محتوم من اليأس وفقدان الحياة.

وكأن الشوق سائق يسوق الشاعر إلى عناق محبوبته، ووداعها الذي معه فقد لحياته، وقتل لأمله، وكذلك الأغلال تسوق القتيل مستسلمًا إلى مصير محتوم من فقدان الحياة أيضًا. وبعد كل هذا تبقى الصورة الجامعة بين المعنيين أشد

([1]) ديوان علي شوقي صـ١٧.

دليل على شوق " علي شوقي" وعشقه، وكذلك يبقى المعنى المقصود مستقرًا في بطن الشاعر – لو وصل إليه –، وما سوى ذلك دندنة حول مراده، ومطارحات تنهض دليلاً على إبداع "علي شوقي" وظليل معانيه؛ "لأن الإنسان الذي يسأل ماذا تعني القصيدة ، يوجه سؤالاً مضحكًا ؛ لأن الشاعر نفسه لا يستطيع القول إلا إذا كانت القصيدة رديئة"(١).

فكلما كانت الكلمة الشعرية مشعة ظليلة، مترامية الإيحاءات كان الحديث عنها مثمرًا، والأفكار من حولها متشابكة متفرعة، كالشجرة الممتلئة قطوفًا، من أين قصدها قاصدوها أصابوا منها رغدًا، وأنَّى توجهوا إليها نالوا من قطوفها جنىً.

الصورة الثالثة من صور الحبيبة المفارقة: صورة الدمع المتحدر من طرفها الكحيل. يقول "علي شوقي" :

والدمع يغشى طرفه وكأنه

نور تخلل جنح ليلٍ أليل(٢)

وهي – مع بساطتها – من أجمل صور الشاعر في وصف موقف آسر للحبيبة المفارقة التي تحدر دُرّ عينيها على ورد خديها، في لحظة تشف عطفًا وحنانًا وحبًا ودفئًا، تترجمه عواطف صادقة، نَمَّتْ عنها مشاعر جارفة، ودمع منهمر، ينهل من طرف كحيل، كأنه في انسكابه وإشراقه وجريانه من عينيها السوداوين في سرعة وتتابع نورٌ تخلل جنح ليل أليل، وما أجمل النور، وما أحسن إشراقه عندما يشق ثوب الظلام، ويدخل وسط ليل بهيم، فيبدد سواده، ويقطع سدفه.

وجمال الصورة هنا يكمن في أن "علي شوقي" أراد مدح الأمرين معًا، وليس مدح الدمع الذي وصفه بالنور، وذم الليل الذي أراد به سواد عين الحبيبة؛ إذ إن مقصوده هو إضفاء هالة من الجمال الرفيف الشفيف، في مشهد هامس ممتلئ بالمشاعر النبيلة، والعواطف الرقيقة رقة الدمع المنحدر من طرف كحيل، كالنور المتسلل في سدفة ليل شديد العتمة، عبر عنه الشاعر بأنه ليل أليل، وهو تعبير عربي أصيل، يقولون : "ليل أليل" وكذلك "ليلة ليلاء" إذا كانت الليلة حالكة السواد، وعندما تمتلئ هذه الليلة بالهموم والسهر والقلق، يقولون: "ليلة نابغية"، إلحاقًا لها بليالي النابغة الذبياني(٣).

* ولربما أراد "علي شوقي " من هذه الصورة رسم الدمع المترقرق داخل عين الحبيبة وهو ما

---

(١) علم الجمال والنقد الحديث / عبد العزيز حمودة صـ١٢ – طبع مكتبة الأنجلو المصرية.

(٢) ديوان علي شوقي صـ ١٧، وكأنه في هذه الصورة قد نظر إلى قول مجنون ليلى فيها:

بيضاء باكرها البياض كأنها

قمر توسط جنح ليل أسود

ينظر: ديوانه صـ٧٥ .

(٣) معلوم أن ليالي النابغة الذبياني طويلة، وكلها هم وسهر بسبب غضب "النعمان بن المنذر" عليه، وهجره له فضرب بلياليه المثل في الطول والهم . قال النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب

وليل أقاسيه بطيء الكواكب

ينظر: العمدة جـ٢ صـ٢٤١ وقد ذكره ابن رشيق تحت عنوان " ما جاء في طول الليل " .

يسمى بـ"العبرة"[1]، لا الدمع الذي ينحدر من المآقي على الخدود ، ففرق بينهما كبير، إذ والحالة هذه يكون مراده هو وصف تماسك المحبوبة وجلدها، غير أن الشوق غلبها، وجلال الموقف هَزَّ كيانها، وحرك دمعها، فغشي الدمعُ طرفها الكحيل، وملأ حدقها القلق ، وترقرقت العبرة في محاجرها فقط ، دون أن يسَّاقط على خدها، فبدا كالنور الذي غشى الظلمة، وسرى في أحشاء الليل فخالطه، وتخلل وسط سُدُفِهِ.

ولقد آثر "علي شوقي" هذا التعبير الدقيق "الدمع يغشى طرفه"؛ ليظهر الفرق بين حال محبوبته المتماسكة "شاكية السلاح"[2]، وبين حالته هو والدمع ينطلق من عينيه بغزارة، ويندفع بقوة على خده، حزنًا على الفراق، فهو الضعيف الأعزل، بحضرة القوية "شاكية السلاح"، "وبضدها تتميز الأشياء".

وفي الصورة التالية بيان لحالته، ودمعه يكف على خده.

الصورة الرابعة: دمع الشاعر الواكف وقلبه الوجل، وهي تتمة للصورة السابقة التي صورت دمع الحبيبة. يقول –كاشفًا عن أزمته :

وكأن دمعي مطلق من ربقةٍ

وكأن قلبي في مخالب أجدل[3]

ومن يتأمل صورة دمع الحبيبة في الصورة السابقة، وصورة دمع الشاعر هنا يدرك دقة الشاعر في اختيار اللغة التي تحمل الصورة، وتحدد في براعة الشكل واللون والحركة والزمن؛ فدمع الحبيبة يغشى طرفها، ويخالط عينها، وقد أخذنا هذه الدلالة من الفعل "يغشى" الدال على الامتزاج والمخالطة، وأما دمع الشاعر فقد تكفلت اللغة أيضًا بالتعبير عنه، حيث عبر "علي شوقي" عنه باسم المفعول "مُطلق" المأخوذ من الفعل الرباعي "أطلق" ؛ دلالة على سرعة انسكاب الدمع بشدةٍ وانهمار، وغزارة وتهتان، وكأنه أريق من شن، أو تحدر من شاهق، أو تدفق من دلاء أو قِرَب، فلقد قال في براعة تعبيرية دلت على مراده : "وكأن دمعي مطلق من ربقة" أي : كأن دمعي حُلَّ من قيد، أو فك من عروة كانت تقيده وتمنعه فصار "مطلقًا" بالبناء للمجهول؛ لأن اسم المفعول يعمل عمل الفعل المبني للمجهول، ويؤدي معناه، ولقد غاب الفاعل هنا، وأصبح ضمير الدمع نائبًا عنه لاسم المفعول "مطلق" ؛ دلالة على شمولية الفعل، وتوسعًا في المعنى، وكأن كل شيء ساعد على إطلاق الدمع وانهماره عند الشاعر، ومن ثَم فقد غاب الفاعل؛ ليدلل على كثرة القائمين بالفعل، المشتركين فيه، الدافعين إليه، صدقًا في الحب، وإخلاصًا للمحبوب، وصدق من قال:

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا

وتذبل حتى لا تجيب المناديا

---

(1) العبرة : ماء الدمع يترقرق في المآقي ويملأ الحدق.

(2) وصف وصفها الشاعر به فيما سبق " لرأيت من شاكي السلاح وأعزل" صـ١٧ من ديوانه.

(3) ديوان علي شوقي صـ ١٧.

وتنحل حتى ليس يبقى لك الهوى
سوى مقلة تبكي بها وتناجيا[١]

هذا عن دمعه الجاري الذي فُتحت سدوده، فتدفق بغزارة، وأما عن قلبه الخافق ساعة الوداع ووقت الفراق فهو كما وصف فأجاد : "وكأن قلبي في مخالب أجدل"، والأجدل "الصقر"، ولقد أراد من وراء هذه الصورة شدة خفقان قلبه، وسعة وجيب صدره، ودلالة على أن فؤاده معلق في مخالب صقر يحلق به في الجو، ويرتفع إلى قلل الجبال؛ فهو لا يستقر أبدًا، لكنه في علو واستفال، وارتفاع وانخفاض.

ولقد آثر "علي شوقي" اختيار مخالب الأجدل خاصة، ليعلق قلبه فيه، لأن الصقر يجول ويحلق في طبقات الجو العليا، ويصل إلى ما لا تستطيع الطيور الأخرى أن تصل إليه؛ ومن ثم فهو دائم التجوال في الجو لا يستقر قراره، وهذا ما أراد "علي شوقي" أن يصور قلبه به من خفقان ووجيب، ودقات متلاحقة يعلو شهيقها، وينخفض زفيرها في سعة وسرعة، وعلو وارتفاع، كمثل هذا الأجدل سواء بسواء .

ولا تخفى على متخصص تراثية هذه الصورة التي استلهمها "علي شوقي" من تصوير قلب المحبين ساعة فراق الأحبة، من أمثال "قيس بن الملوح العامري" الذي أسس لهذه الصورة بقوله ساعة رحيل "ليلى":

كأن القلب ليلة قيل يغدى
بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزَّها شَرَكٌ فباتت
تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بقفر
فعشهما تصفقه الرياح
إذا سمعا هبوب الريح هبا
وقالا أمنا تأتي الرواح
فلا في الليل نالت ما ترجى
ولا في الصبح كان لها براح[٢]

فالقلب عند المجنون "قطاة" ، ومعها أوصافها وقيودها ومعاناتها في شركها ليلاً ونهارًا، بلا فتور أو استقرار، حيث تركت فرخيها – وقد سقطت في شرك الصياد – تلهبهما حرارة الجوع، وتصفق عشهما شدة الرياح التي يحسبان في حركتها وهبوبها قدوم أمهما؛ لتزقهما طعامهما، بيد أن الأم المتألمة ظلت حبيسة شركها القاسي طوال ليلها، ما نالت فكاكًا منه، ولا في الصبح كان لها براح من معاناتها فيه، وكل هذه الأوصاف والمعاناة والصور المتزاحمة بعضها مع بعض، والمتلاحقة في تتابع وسرعة، ما هي إلا تصوير لأزمة هذه القطاة ، مع انعكاسها كاملة على قلب المجنون، فهو دائم الخفقان والوجيب من غير استقرار ولا توقف، تعلو دقاته ويرتفع وجيبه، وينخفض ، تمامًا كعلو القطاة، وانخفاضها في محبسها بلا توقف؛ لأنها مشغولة قلقة راجفة واجفة، خائفة على مصير

(١) أحلى عشرين قصيدة في الحب الإلهي – فاروق شوشة صـ٣٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٧م.

(٢) ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوح صـ١١٨.

صغيريها زغب الحواصل، وهما في مهب الريح[1].

وبنظرة عجلى للموازنة بين "علي شوقي " والمجنون ندرك أن صورة المجنون أسبق معنى، وأكثر ماء، وأشد رونقًا، وأدل على القلق الدائم الذي أصاب قلبه المفطور؛ حيث ألحقه بالقطاة التي أسهب في وصفها ومعاناتها. وفي أسبابه وتفصيلاته لوصفها تكثيف لحالة قلبه، ومضاعفة لمعاناة فؤاده؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كما هو مقرر ومعروف، غير أن "القطاة" التي هي محور وصف القلب عند المجنون أفقها شرك، ومحور حركتها وأعلى سقفها فخ، لو وصف بالسعة لا يبرح أن يكون عدة أشبار، طولاً وعرضًا وارتفاعًا، والقطاة فيه تجول مفزعة حائرة وجلة، وأما أفق الأجدل "الصقر" الذي هو محور وصف قلب "علي شوقي" فليس له حدود ولا قيود ولا نهاية ؛ لأنه يحوم في الفضاء ، ويحلق بفريسته في الجوزاء ، لا يُصَدُّ ولا يُردُّ، ومعه قلب "علي شوقي" متمزقًا، ينخلع بالفراق، ويهيم بالبعاد، ويروح ويغدو بلا قيود؛ ليكون هواء في هواء، فارغًا من كل شيء إلا الحبيب.

أضف إلى ذلك: دلالة التمزق والتشتت، والتفرق والتفسخ الذي يلحق بكل من عَلِق في مخالب الصقور. وفي الصورة إيحاء واضح، وكناية جلية عن تمزق قلب الشاعر وشتات نفسه، وتفرق مشاعره، تمامًا كفريسة الأجدل؛ ولذا يئس من حياته، وأيس من حبه، وخرج من صبره، مختارًا توديع الحياة، مؤثرًا الموت عليها، مناديًا على داعي الصبر، قائلاً في ختام معاناته:

يا داعي الصبر الجميل ولم يجب
أو ليس توديع الحياة بأجمل؟![2]

ثالثًا: المحبوبة المهيمنة: وهذه لها خصوصية عند "علي شوقي" تختلف عن غيرها ممن سبق القول عنهما من المحبوبة البخيلة والمحبوبة المفارقة، إذ يصورها مسيطرة بحسنها، مهيمنة بجمالها وسحر عيونها، وسواد مقلتيها، وهو معها مشفق على نفسه، ينعم بوصلها، ويعده تكرمًا، ويمدح هجرها، ويرضى به ويفاخر في كل حال . يقول:

خدعتك من سود العيون نواظر
فوقعت فيما كنت منه تحاذر
بأبي التي إن واصلت فتكرمًا
منها وإن هجرتْ فنعم الهاجر
وإذا دنت صدت وإن وعدت فإ
ن الغدر قد غطى عليه الظاهر
أسلمت طرفي للتسهد فاسلمي
إنَّ المحب بما جنيت مفاخر

---

(1) لعل هذه القلق الذي صوره المجنون لوجيب قلبه ناتج عن زواج ليلى من ورد العقيلي هذا الزواج الذي أذهل فؤاده وطغت عاطفة الحب على كل قواه، لكنه لم يكن مجنونًا بالمعنى الشائع الآن . ينظر في تفصيل هذا: الغزل العذري في العصر الأموي د/ حسن عبد القادر مصطفى من ٢٢٥ إلى ٢٣٧ ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(2) ديوان علي شوقي صـ ١٧.

ولو أن طرفك ناعس فلتعلمي
أنِّي على رعي المودة ساهِر[١]

وعجيب حال هذه الحبيبة الواثقة بنفسها التي إذا دنت صدت، على عكس حال كل حبيبة، وإذا وعدت أضمرت الغدر والخلف، حتى ولو أظهرت خلاف ذلك، والشاعر مع هذه الأحوال القلقة يظهر الخضوع، ويعترف بالتسليم لسلطان الحبيبة، ويدعو لها بالسلامة والحفظ ، على الرغم من أنها قد أسلمت طرفه للسهر والسهاد ، فعينه لا تغفل ، وجفنه لا ينام من جراء العشق ، ومع كل هذا فهو المحب المفاخر بهذا الصَدِّ والجحود والسهاد، يخاطبها بملء فيه قائلاً لها: "إنَّ المحب بما جنيت مفاخر" وكأنه ينطق على لسان "العباس بن الأحنف" في قوله:

سمَّاك لي قوم وقالوا إنها
لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم
إنِّي ليعجبني المحب الجاحد[٢]

وفي حين أن طرفها ناعس، وبالها ناعم، ومشاعرها مستقرة، فإن شاعرها ومحبها ساهرٌ على المودة، حافظ للوداد، مع شقائه بنظرة تسقمه، وتشمت فيه حساده، لكنه قضاء الحب، وحكم الغرام الظالم الجائر، القاضي على العشاق – ظلمًا – بالعذاب والضنى والجفوة والبعاد[٣].

يقول " علي شوقي":

أبنظرة أشقى ويشمتُ حاسدي
لا حبذا حكم الغرام الجائر
لم أصب من تلقاء نفسي للهوى
لكنما إنسان عينك ساحر
وتشوقي لك بالتذلل آمري
وعزيز قدري عن غرامك زاجر
قد كنت أقنع بالخيال تعلة
لو أنَّ ذياك الخيال مزاور[٤]

والأبيات توضح سر صبوة الشاعر، وأسباب خضوعه لها، فهو أولاً لم يَصبُ – "من الصبوة" للهوى والغرام – من تلقاء نفسه وذاته، وإنما مدفوع بسحر عينيها التي تشقيه، وتأمره بالتذلل والخضوع لسلطان حبها، بل إن شوقه لها يحثه إليها ويدفعه نحوها دفعًا، وإن زجره أنفةُ طبعه، وعزةُ قدره عن الغرام، ونأيا به عن مذلة الحب آونة، لكنه في آونة أخرى يلبث أثواب العذريين، ويتشح وشاحهم في أمور متنوعة، ومظاهر عدة منها:

المظهر الأول: قناعته بالخيال لوزاره؛ ليتصبر بطيف حبيبته من خلاله... لكن الخيال لم يزره، بل ضنَّ بطيف الحبيب، فبعدت عنه الحبيبة واقعًا وخيالاً معًا، مما ضعف معه

---

(١) ديوان علي شوقي صـ ١٤.

(٢) ديوان العباس بن الأحنف صـ١٠٢ – طبعة دار صادر ١٩٧٨م .

(٣) يراجع في هذا الباب : مدامع العشاق د/ زكي مبارك تحت عنوان ظلم الحبيب صـ١٥٩ وقساة القلوب صـ١٦٢ – سلسلة ذاكرة الكتابة – الطبعة الثانية ٢٠٠٦م قصور الثقافة.

(٤) ديوان علي شوقي صـ ١٤، ١٥.

صبره، فانثنى بعيدًا عنه وملّه، فكيف يكون حاله من بعده. يقول:

قد كنت أقنع بالخيال تعلة
لو أن ذياك الخيال مزاور
أكرمت مثوى الصبر بعدك فانثنى
عني وملَّ فكيف يبقى الصابر[١]

المظهر الثاني: كثرة شكواه من الوشاة،وإعلاء قدر المعشوقة. يقول في ختام قصيدته:

ما عيش صب حاربته وشاته
بأمر منه وقد لحاه العاذِر
ليست دماء العاشقين كريمة
إنْ كان يهدرهن جفن فاتر
ماللحسان إذا ظفرن بمغرم
يسخرن منه كأنما هو هاذر
ويغرن من نظمي القريض كأنما
هذي البدائع للحسان ضرائر
أنا أعشق الدنيا فقل لعواذلي
إنَّ الغرام غرائز وخواطر[٢]

وهذه شكايات تسرى مرارتها في جل شعر " علي شوقي " على اختلاف مشاربه وموضوعاته؛ لكنها هنا تختص بالوشاة الذين يعكرون صفو حبه، ويرنقون غدير عشقه، ويشهرون في وجهه سيف العداوة، ويلبسون له جلد النمر.

ولئن كان هذا حال الصب مع الوشاة، والمتربصين به فإن عيشه وموته سواء، وليتهم وحدهم يعكرون حياة الوامق، ويبعثرون حلم العاشقين، لكنه أيضًا قد تآلب عليه الحسان، سخرية وإنكارًا، لا يقدرون صاحب الغرام، ولا يمسحون له دمعًا، ولا يسكنون له وجدًا، بل منه يسخرون، ومن عشقه يستسخرون، وعلى مشاعره وأحاسيسه يتندرون وكأنه عندهم هاذر أو ماجن أو عابث .

وأما عن موقف الحسناوات من إبداع الشاعر وفنه ونظمه القريض، فإنهن من إبداعه يغرن، ومن قريضه يسأمن، وكأنما قريضه ضرائر لديهن، يضمرن له كل حقد، ويخفين كل كراهية، بل ويظهرنها أيضًا، لكن هذا الكيد الدفين، وهذا الحقد المتربص بالشاعر لن يثني من سهام عزمه الماضية نحو الغرام، أو يغير وجهته إلى الحسن، أو يفت في عضده تجاه المشاعر والأحاسيس؛ لأن الغرام لديه طبيعة، والعشق عنده غريزة، والتعبير عنهما طبع وسجية، تشفان عن خواطر صادقة ومشاعر نبيلة، يرفدها قلب نابض، ويمدها من بعده إحساس متوقد، ومشاعر فياضة، وحب عذري طاهر[٣].

يقول:

أنا أعشق الدنيا فقل لعواذلي
إن الغرام غرائز وخواطر[٤]

---

(١) ديوان علي شوقي صـ ١٥.

(٢) ديوان علي شوقي صـ ١٥.

(٣) الحب العذري هو حب خالص من شوائب الدنس والرجس، وهو حب طاهر شريف لا يعرف مخزيات المآثم، ولا منديات الأهواء . ينظر في ذلك : العشاق الثلاثة ، د/ زكي مبارك صـ١٥ طبعة دار المعارف بمصر – الثانية – سلسلة اقرأ .

(٤) ديوان علي شوقي صـ ١٥.

رابعًا: الحبيبة المتعطفة: وهي نوع فريد في حياة "علي شوقي" صورها في صورة المتحننة إلى حبيبها، المتعطفة عليه، تُذكِّره يوم الفراق بالوداد، والأمل، والتمسك بالحياة، والاعتزاز بها؛ لأنها "أي المحبوبة" تعيش معه فيها. يقول على لسانها، وكأنها تعاتبه في رقة:

أَتَذْكُرُ من يوم الفراق حديثنا

وأدمعنا مثل الحديث شجون

وقولك لي : إن الحياة عزيزة

عليك لأني في الحياة أكون

وأقسمت لي بالحب أن لست تاركي

فما لك في هذا اليمين تمين[١]

وما بالها هانت عليك كأنما

أصابك من حب الحياة فتون

لعمرك لو هانت عليك فإنما

على صبك المعمود ليس تهون[٢]

لقد خنت عهدي عامدًا لو فعلتها

ومن عجب أني أفي وتخون

دع العسر يبلغ حده واصطبر له

فيا رب عسر لليسار ضمين[٣]

والقصيدة كلها خطاب رقيق ، وهمس هامس من المحبوبة المتعطفة إلى الشاعر المتبرم، تنهاه فيها عن اليأس[٤]، وتكفه عن التزمر من الحياة، وكيف ييأس من حياته وهي تكمن فيها وتعيش، وقد أقر لها بذلك على لسانها، حين جَدَّ البين، وحانت لحظة الفراق، ودمعها يسيل على خديها سيل الحديث بغزارة وانهمار وشجون، يتخللها همس الحب، وشجن العشق الذي يغذو أذن الحبيبة أحلى من العسل، وذلك عندما زفها شاعرها العاشق بشراها السارة ممثلة في قوله لها: "الحياةُ عزيزةٌ عليَّ لأنك تعيشين فيها" ، وحسبي في هذا التمسك بها .

وقولك لي : إن الحياة عزيزة

عليكَ لأني في الحياة أكون

ولم يكتف الشاعر بهذا التصريح الذي ملأها إعجابًا، وسكب في أذنيها صوابًا، فازدادت زهوًا، وعلت تيهًا؛ ليردفه "علي شوقي" بالقسم المبرم بالحب المفعم بالوئام قائلاً على لسانها تخاطبه:

وأقسمتَ لي بالحب أن لست تاركي

فما لك في هذا اليمين تمين

وكأنها بذلك تقيم عليه الحجة، وتلزمه بالمكث بين يديها، والانصياع لهواها في القرب والوداد ، إلا أن اليأس قد سيطر على شاعرها – وقد نهته عنه – فهان الحب على نفسه ، وزهد في تلك الحياة، ورغب عنها وصدف، مع أنَّها مسكن حبيبته، ومأوى معشوقته تلك التي أضناها الحب، فتعلقت بأهداب الحياة، وزادت لديها الرغبة فيها، على عكس ما كان عند الشاعر اليائس:

وما بالها هانت عليكَ كأنما

أصابك من حب الحياة فتون

---

(١) تمين أي تكذب، مان يمين أي كذب . اللسان (مين).

(٢) الصب المعمود: هو الصب الذي أضناه الحب . اللسان (عمد) .

(٣) ديوان علي شوقي صـ ١١ .

(٤) لذا ، جاءت القصيدة تحت عنوان : لا تيأس ، وكأنها تخاطبه بذلك تحت هذا العنوان .

لعمرك لو هانتْ عليكَ فإنها
على صَبك المعمود ليس تهون
لقد خنت عهدي عامدًا لو فعلتها
ومن عجب أني أفي وتخون

وجميل هذا التعطف والاعتراف بالحب، والخضوع لسلطان الهوى من معشوقة " علي شوقي" هذه، والتي جاءت وجهتها على خلاف معشوقاته اللائي سبقنها: من المفارقة أو البخيلة أو المهيمنة المسيطرة، وكلهن يترفعن عنه، ويبدين الدلال، ويستعذبن ظلمه والتعالي عليه[1]، كما سبق في الحديث عنهن[2]، وأما هذه فقد اعترفت بسلطان العشق، بل وعزمت على الصبابة، وأعلنت عنها، متبتلة في محرابها معمودة فيها:

لعمرك لو هانت عليك فإنها
على صبك المعمود ليس تهون

بل إنها باقية على عهدها ووعدها وعشقها وقربها، حتى ولو كان حبيبها على النقيض من هذا كله، وفي هذا عجب منها، وإنكار؛ إذْ المعروف عند أهل الغرام والعشق أن يعلن العاشق سلطان هوى معشوقته عليه، ويبسط لها رداء الوفاء، ويمد لها جسور الطاعة والولاء ، حتى لو ظهرت هي على خلاف ذلك، وفي كل هذا اعتراف بهيمنة الجمال الأنثوي، وتسليم لسيطرة المحبوبة على قلب من يعشقها، إلا أنَّ "علي شوقي " آثر أن يظهر محبوبته هنا على خلاف المتعارف عليه: "متعطفة – وفية – معترفة بهيمنة هواه عليها." نسمعها تقول له بكل تودد[3]:

لقد خنت عهدي عامدًا لو فعلتها
ومن عجبٍ أنِّي أفي وتخون

وفي ختام حديثها الدافئ إليه تزفه وصيتها التي تريح قلبه، وتشرح صدره، وتخرجه من دائرة اليأس إلى رحابة الأمل والصبر والرجاء والفرج القريب قائلة له:

دع العُسْر يبلغ حده واصطبر له
فيارب عسر لليسار ضمين
ولا تيأسنْ من رحمة الله واثئد
فإن قنوط العاقلين جنون[4]

خامسًا: الحبيبة المتقلبة بين الهجر والوصال

وهذه الحبيبة بحالتيها من الهجر والوصل، والعطاء والبخل، والتبرم والرضا، وغير ذلك من تقلبات الزمان التي ذاعت وشاعت بين عوالم المحبين، ومن ثَمَّ امتلأت كتب العشق والمحبة بأبواب وفصول ومباحث تضم هذه الأحوال

---

(1) الظلم هنا ربما حُبب إلى المحب . يقول الدكتور / زكي مبارك : "وفي الحب وحده يحلو الظلم، حتى لتحكم عليه " علية بنت المهدي" بأن الحب بُني عليه، وتقول: " بُني الحب على الجور، فلو أنصف المعشوق فيه لسمج..." ينظر: في هذا الباب : مدامع العشاق للدكتور زكي مبارك صـ١٥٩ طبعة الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦م. .

(2) ينظر ما سبق من أحوال المحبوبة : المحبوبة المفارقة ، والبخيلة ، والمهيمنة .

(3) وكأنه عمر بن أبي ربيعة ، وكأنها إحدى المعجبات به ، المتماوتة في عشقه وحبه .

(4) ديوان علي شوقي صـ١١ .

المتقلبة من أمثال: طوق الحمامة، ومصارع العشاق، ومدامع العشاق، والأمالي، والأغاني، والمستطرف، وغيرها. فضلاً عن دواوين الشعراء التي فاضت بالحديث عن ذلك.

"وعلي شوقي" واحد من هؤلاء الشعراء، فقد ساقه هواه فأطاعه راغبًا في التعلق بالحسناوات الفاتنات ممن يتأرجحن بين البخل والجود، ويتمتعن بالمنع والعطاء تدللاً وتغنجًا. يقول علي شوقي:

لو أطعنا عقولنا ما اشترينا
سلعة الحب بالشباب الثمين
أو ملكنا مع المحبة رشدًا
ما وهبنا رجاءنا لضنين
كان قلبي لا يعرف الحب حتى
كلمته لحاظ تلك العيون
خدعتني بها المقادير حتى
ذل قلبي لها وعز معيني[١]

وهي لوعة حارة، وزفرة طويلة ينفثها "علي شوقي" في سماء الحب المسيطر، الذي ترك فيه عقله، واتبع هواه ومشاعره، حتى ذَلَّ قلبه للحاظ كلمته، وخضعت مشاعره لبخل ملكِته، وقد قَلَّ معينه، وتصرَّم ناصروه، فمن ينصره بعد ذلك الأمر، وقلبه فريسة لعيون جميلة، وسهام ساحرة يستغيث من فتنتها، ويستجير من سيطرتها، فقد شغفته حبًا، أو شعفته شوقًا، – بالغين والعين – يقول يناديها:

يا لحاظا بل سيوفًا حدادًا
قتلتنا ولم تزل في الجفون
حسبك الله أنت أسرفت في القتـ
ـل وأفسدت صالحات الظنون[٢]
ليت شعر الحسان ماذا أرادت
بالمحبين من شقاء وهون
هُنَّ عَوَّدْننا مواصلة الصبـ
ـر على الهجر والبعاد الشطون[٣]
ثم منيننا بوصل إلى أن
أسلمتنا المنى لأيدي المنون[٤]

وهنا يعلن الشاعر ضعفه، ويذيع استسلامه، ووقوعه أسيرًا في شباك الهوى، قتيلاً بسيوفه الحداد، التي قتلته فأصابت سويداء فؤاده ، ولا تزال ساكنة في أغمادها، ساهمة في جفونها، لم تُسل بعد، فكيف لو سلت؟، وماذا لو أشهرت؟، لا ريب في أن قتلها كثير، وفتكها كبير!!

ولقد امتطى "علي شوقي" أشرعة الخيال ، وحلق في سمائه بجناحين كبيرين، متخذًا من "الاستعارة المكنية" مرفًأ يعلو به في عوالم التعبير العالي عن الألحاظ الساحرة التي كانت سيوفًا بتارة أصابته فأردته قتيلاً، ولا تزال كامنة في جفونها.

ولم يكتف " علي شوقي " بهذا التعبير الاستعاري اللطيف لكنه رشح الاستعارة، وأوغل

---

(١) ديوان علي شوقي صـ٦١، ٦٢ .

(٢) لام كلمة القتل كتبت في الديوان في الشطر الأول وصوابها أن تكون في الشطر الثاني؛ لأن القصيدة من بحر "الخفيف" فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن في كل شطر، فالبيت مدور.

(٣) الراء في كلمة الصبر كتبت في الديوان في الشطر الأول، وصوابها أن تكتب في الشطر الثاني لذات السبب المذكور سابقًا.

(٤) ديوان علي شوقي صـ٦٢، ٦٣ .

فـي الخيـال والمبالغـة، فقـال: "ولـم تـزل فـي الجفـون" ؛ لتتصـرف هـذه الجملـة تـارة علـى الحقيقـة إلـى اللحـاظ، وتصـبح الجفـون هنـا بمعناها الحقيقي "جفون العيون"، وتكون الجملة هذه جملة حالية من اللحاظ، وأما على المجاز فهـي جملـة حاليـة أيضًـا مـن اللحـاظ المشـبهة بالسيوف، وتكون الجفون هنا بمعناها المجازي " جفـون السـيف" بمعنـى أغمادهـا ، ومثلهـا فـي الجمال والخيال والظلال قوله:

حسبك الله أنت أسرفت في القتـ

ـل وأفسدت صالحات الظنون

وهو دليل استسلام واعتراف من "علي شوقي" بهيمنة العشـق، وقـوة الغـرام، وجـلال الحبيبـة التـي رمتـه بسهامها فلم تخطئه، بل أسرفت واشتفت، غير أنها رمته مع هذه السيوف الحداد بالشقاء والهوان والبعاد والشـطون، ومـن ثَـمّ فهـو يواصـل الصـبر، ويكابـد الحرمان، ويتسلى بالآمال الكاذبة، والأماني الضائعة التي أسلمته في النهاية فريسة لمخالب الموت وأيادي المنون.

ثم منيننا بوصل إلى أن

أسلمتنا المنى لأيدي المنون

لكن هذه الحبيبـة لـم تكن علـى حالـة واحدة مـن الصـد والعنـاد والنـأي والبعـاد، فهـي التـي أسلمته بعد وصـل كـاذب لأيدي المنـون، وهـي ذاتهـا التـي أسعدته أيضًـا بلقـاء جميل بعد بـين مبين، عوضًـا لـه عن ليالي الهجر وأيام البعاد، ومـن ثَـمَّ فعنـدما تعـاوده هـذه الـذكريات السـعيدة التـي نعم فيهـا بـالوداد، وارتشـف رحيـق الوصـل من كؤوس المودة، لا يملك دمعه الذي يسح من مقلتيـه سَـحّ غـروب، إشـفاقًا علـى هـذه الأماسـي الغالية . يقول في ذات القصيدة :

يا خليلي خل الملام فذكري

لشؤوني أفاض ماء شؤوني

رحم الله ليلة أسعدتني

بلقاء من بعد بين مبين

ليلة العيد هل تراك تعوديـ

ـن ففي العود برء دائي الدفين(١)

وتعلـق "علـي شـوقي" بليلـة العيـد خاصـة؛ لأنهـا نقطـة التلاقـي بـين الأحبـة والأصـدقاء، وزمان الوصل والود بين كل ناءٍ بعيد، وملتقى كـل غائـب يعـود إلـى أحبتـه، فيبـرأ مـن عللـه وأسـقامه وداءاتـه التـي نشبت فـي فـؤاده بسـبب البين والبعد والفراق، يضمدها بالنظر، ويشفيها بـدفء القرب، وقرب الـدفء، بعد أن بـذل فـي سبيل لقاء أحبته وسع جهده، وجهد وسعه.

لكن "علي شوقي" إضافة إلى كل هذا يسعد مع ليلة "العيد" بعدة أمور أخرى، ويحظى فيها بخبيئـات لـم يكـن ليحظـى بهـا آخـر، وليتـه أضـمرها بـين جوانحـه؛ حتـى لا يحنـق عليـه الوشـاة، ولا يحقـد الحاقـدون، لكنـه لـم يسـتطع لجمالها وسرورها، فأذاعها بأعلى صوته قائلاً بعد البيتين السابقين:

(١) نون تعودين في الديوان ثبتت في الشطر الأول في الديوان لكن الصواب أنها في الشطر الثاني حتى لا ينكسر وزن البيت؛ لأن القصيدة من بحر الخفيف "فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن في كل شطر . والأبيات في ديوان علي شوقي صـ٦٣.

حيثما أستقي السلاف بكأسي
ن فم واضح وكأس جون[١]
غير أن الرضاب أجلى وأحلى
لهموم المتيم المحزون
خمرة الريق كأسها من عقيق
والحميَّا كؤوسها من طين
هذه تذهب العقول وتلكم
تذهب الحزن عن فؤاد الحزين[٢]

وكأن "علي شوقي" في هذه اللوحة الرومانسية الجميلة ذكرنا برومانسية "الشريف الرضي" في أماسيه الحالمة، في قوله من قصيدته الشهيرة "يا ليلة السفح " التي نال فيها الوصال وشفى نفسه من الجوى:

وبات بارق ذاك الثغر يوضح لي
مواقع اللثم في داج من الظلم[٣]

أو شغف "العباس بن الأحنف" وأمانيه، عندما أصابته العلل، وأشرف على الهلاك، ورفض أن يتجرع أي ماء أو دواء خلا رضاب الحبيبة؛ فأوصى وهو قاطن في بلاد العراق زوار بيت الله أن يحضروه في زجاجة، حيث تقيم حبيبته في بلاد الحجاز، وحثهم أن يسقوه من رضابها إن أدركوه حيًا، أو يرشوا بعد فراقه منه على قبره، ويصبوا على جدثه. فقال في طرافة وإبداع:

إذا ما عصرنا الماء في فيه مجَّه
وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لي منها جرعة في زجاجة
ألا إنها لو تعلمون طبيبي
وسيروا فإن أدركتمُ بي حشاشة
لها في نواحي النفس وجس دبيب
فرشوا على وجهي أُفق من بليتي
يثيبكمُ ذو العرش خير مثيب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم
وبيني بيوم للمنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرةٍ
حليف صفيح مطبق وكثيب
فرشوا على قبري من الماء واندبوا
قتيل كعاب لا قتيل حروب[٤]

وواضح أن "ابن الأحنف" تحدث عن أسرار رضاب الحبيبة حديث المشتاق الذي طلب، لكن المطلب كان بعيد المنال؛ حيث يقطن العراق، ومحبوبته تقطن أرض الحجاز، غير أن شدة شوقه قد ساقته إلى هذه الحيلة الطريفة، تلك التي تمثلت في أخذه الريق – عن طريق زوار بيت الله – في زجاجة تصل إليه، وتصب على وجهه في حياته، أو على قبره بعد مماته، من غير تفصيل أو بيان لسحر هذا الرضاب، وما يفعله في المحب، وله عذره؛ لأن "ابن الأحنف " اشتاق ولم يذق، وطلب ولم

(١) نون كلمة "بكأسين" وضعت في الديوان في الشطر الأول وصوابها أن توضع في الشطر الثاني كما أثبتها، حتى يستقيم الوزن عروضيًا؛ لأن القصيدة من بحر الخفيف.

(٢) ديوان علي شوقي صـ٦٤ .

(٣) الشريف الرضي حياته وشعره: د/ عبد الفتاح الحلو، صـ ١٤٨، القسم الثاني – الطبعة الأولى ١٩٨٦م .

(٤) ديوان العباس بن الأحنف صـ٢٣، ٢٤ – الطبعة الثانية – دار صادر ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .

ينل، وهَمَّ ولم يصل، واكتفى بمطلبه، وانشغل بالوصول إليه، ويكفيه هذا مع بُعد منالـه، وطرافة مطلبه، وصدق مشاعره.

أما علي شوقي: فقد وصف وفصل، وزاد وتأمل، ووازن وأبدع بين خمرين مسكرين، وسلافين معشوقين، أولهما يرتشف من فم محبوبته، وثانيهما يُعب من زجاجة معلومة الطعم معروفة المصدر فهي بنت الكرم التي " لو مسها حجر مسته سراء"(١)، إلا أن الشاعر المبدع "علي شوقي" قد فضَّل خمرة الريق، وشهد الرضاب على بنت الكرم، بعد أن فاضل بينهما بذكره حيثيات المفاضلة من وجهات متعددة منها:

الوجه الأول: أن خمرة الرضاب أحلى وأشهى وأجلى لهموم المتيم المحزون، وأدنى لذهاب غمه وهمه من خمرة الكأس.

الوجه الثاني: البون شاسع بين الكأسين، والجهة منفكة بين الوصفين، فكأس خمرة الريق شفتان حمراوتان، ومبسم جميل بلون العقيق الأحمر يدران الشهد، وينبجس من بينهما ماءُ الحياة، وأما "الحُميَّا" المعتقة أو "الخمر" المشعشعة فهي جد مختلفة، فكأسها من طين، ومن ثَمَّ فالأمر مختلف والفرق واضح، والبين بينهما بعيد .

الوجه الثالث: خمرة الريق تذهب الحزن ، وتجلب السعادة ، وتقوي الوداد، وخمرة العنب تذهب العقول، وتذهل القلوب، وتجلب الهموم، وتهد القوى، وتتعب الأبدان نزفًا وصداعًا(٢).

والحق أقول: أنني ما وجدت في ديوان الشعر العربي الحديث – فيما أعلم – مفاضلة كهذه المفاضلة ، أو تفصيلاً كهذا التفصيل الذي يدل على سعة إطلاع "علي شوقي" على صور الشعراء في هذا المجال، وثباته وإبداعه، وتشقيق معانيه الملحوظة في صورته الرائعة التي رسمها وفصلها بدقة لخمرة الريق وخمرة الكرم، والتي لم يترك لها جانبًا إلا ذكره؛ فلقد ذكر: الشكل في الفم الواضح والكأس الجون، وذكر: الذوق والطعم: في أن خمرة الريق أحلى وأجلى لهموم المحب من خمرة الكرم، وذكر اللون: في كأس العقيق الأحمر لخمرة الريق، وهي الشفاة القرمزية، وكأس الطين الفخارية لخمرة الكرم ، وذكر الأثر المترتب على كل منهما؛ فهذه تذهب الأحزان، أي خمرة الريق، والحميا تذهب العقول وتُتعب الأفئدة.

ويبقى التقاء الشاعرين واضحًا "العباس وعلي شوقي" في وصف الخمرين، وبيان أثر كل منهما، فعند "العباس" جرعة منها تمثل دواءه وطبيبه الذي يداوي أسقامه "ألا إنها لو تعلمون طبيبي"، وعند "علي شوقي" جرعة منها أحلى وأجلى للهموم ، وإذهاب الغموم عند فؤاد

(١) عجز بيت لأبي نواس في وصف الخمر وصدره : بيضاء لا تنزل الأحزان ساحتها. شرح ديوان أبي نواس جـ١، صـ٢١ – ضبطه إيليا الحاوي – طبعة دار الكتاب اللبناني ١٩٨٧م.

(٢) قال تعالى يصف أهل الجنة في تمتعهم بخمر الجنة من غير نزف أو صداع : ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَ لاَ يُنْزِفُونَ﴾ الواقعة (١٩).

الحزين "غير أن الرضاب أحلى وأجلى *** لهموم المتيم المحزون.

العرض الثاني: بيان أحوال الشاعر المحب العاشق

وبعد أن أوضحنا في الصفحات السابقة أحوال محبوبة "علي شوقي"، وفصلنا مواقفها من عاشقها الرومانسي ، وتقلباتها العاطفية مع حبيبها المولَه بها ما بين بخل وجود، وهيمنة، وتعطف ، ومفارقة ووصال، وغير ذلك مما سبق تحليله وبيانه، بما جرى به الزمان، وسار معه الحدثان، فقد آن لنا – تكملة للصورة، وإتمامًا للمشهد – أن نوضح أحوال الشاعر العاشق مع هذا الذي كابده من جهات عديدة، وصارعه وحاربه من مواقف متعددة:

أولاً : محب عاشق، نفسه يائسة وأمانيه ضائعة. يقول "علي شوقي" :

ردا بي حياض اليأس فالصبر لم يجد
لعلي أرى في اليأس عونًا على وجدي
وعودا لنصحي طالما قد نصحتما
عشية كان النصح يقصر عن ردّي
ولوما ولا تثريب فيه عليكما
فلستُ أرى عن سمعي اللوم من بُدِّ
وإلا فصبرًا منكما تُسديانه
إليَّ فإني قد تصرم ما عندي

وصدر الأبيات على خلاف العادة؛ لأن الإنسان يفزع إلى الصبر عندما تلم به ضائقة أو يفجعه خطب، لكن "علي شوقي" قد ورد حياض الصبر فلم يجده الصبرُ، فركن إلى اليأس، وطلب من مخاطبيه أن يردا به حياض اليأس، فربما كان فيه نجاة، أو في غصصه سلوان، وربما كان فيه أيضًا عون على وجده، ونصير على شوقه وصبابته .

كذلك يطلب الشاعر من صاحبيه أن يعاوداه النصح باليأس لا النصح بالأمل والوصال؛ لأنه متأهب إلى اللوم، مستعد للتقريع على رومانسيته وإخلاصه وعشقه وبذله وتضحيته.

وواضح من الأبيات مرارة تفيض منها ، وتصرم يعلوها، وغصص تتفجر من نبرتها الرتيبة وألفاظها الحزينة؛ لأن صاحبها ومن ترنَّم بها سدت في وجهه كل السبل، ولم يجد إلى أمله سبيلاً، ولم يبق في كنانة صبره منزع يهرع إليه، فطلب اليأس بدلاً منه، ونشد سماعه النصح من صاحبيه؛ لأن صبره الذي يألفه قد تصرم، ومن نفسه تسرب؛ ومن ثَمَّ فقد أصبحتْ عزائمه كسيحة، وأمانيه مقعدة، ولياليه الموهنات هممه فيه شامته فرحة، بسبب أحبته اللائي شكونه لألدِّ أعدائه، على حين فاضت عينه عليهم حنينًا، واغرورقت مقلتاه إليهم شوقًا، وتندت عيناه إشفاقًا من البعاد، وحزنًا على الصد، وحسرات على نكران الود وشماتة الأعداء.

ويبلغ اليأس "بعلي شوقي" مبلغه، والضجر قمته وغايته، فينكفئ على أحزانه – شأن كل رومانسي – وينطوي على أشجانه، ولا يجد إلا عينه التي تفضحه، ومقلته التي تذيع لوعته، وتكشف سريرته، وتنشر عشقه، وتنقل إلى الوشاة والحاقدين سره، فيخاطبها في أسىً، ويناجيها في حسرة قائلاً:

هيا عين قد أصبحت عون صبابتي
وعنوان ما أخفى وبرهان ما أبدى
لك الله من مرهومة الجفن بالحيا
سكوب لمثل المهل تكوى به خَدِّي
تراقب مسرى الطيف ليلاً وإنها
لفي شغلٍ عن لذة الحلم بالسُّهد
ولي قلب ثكلى قد أطلت عزاءه
ويأبى ضلالاً أن يثوب إلى الرشد[1]

ولنتوقف عند هذا النداء المفجوع بـ "هَيَا" لنداء العين التي أزكت بالدموع صبابته، وألهبت أحاسيسه، وأيقظت مشاعره، فبدا ما كان يود إخفاءه، وانكشف ما حاول ستره، ولنتأمل جمال الأسلوب الرائع، الذي ملأه الشاعر المبدع تعجبًا، وحشد فيه ألوان الدهشة والتوله في قوله يخاطب عينه السكابة: "لك الله من مرهومة الجفن بالحيا" ، وكأن عينه اتخذتْ – على غير العادة والأصل – من دموعها شفاء، ومن انهمالها دواء ومرهمًا، هذا الذي انهمر منها انهمار المطر وهو الحيا، لكنه إذا نزل على خده ، وانحدر على وجنتيه تحول كالمهل، يكوي خديه، ويحرق فوديه .

ومظاهر الإبداع هنا وسره يتمثل في اجتماع صفتين متناقضتين لشيء واحد وهو الدمع الذي روت العين به جفونها؛ فصار لها "مرهمًا" وفي هذا التعبير دلالة على شدة ذرفها له، وسرعة انهمارها به، طالما كان لها الشفاء وبه أسرار الدواء.

ثم إنه عندما ينسكب هذا الدمع نفسه على خده، ويسح على وجهه يستحيل كالمهل، ويتحول من شفاء إلى بلاء، ومن دواء إلى وباء، إنه دريدي الزيت المغلي يكوي الوجوه "أقصد وجوه العاشقين ووجناتهم" وفي هذا قمة الأسى، ومنتهى الحسرة التي أصابت شغاف قلب شاعرنا الرومانسي وفتت كبده، وصدعت لبه، وأبكت عينه التي باتت تراقب مسرى طيف الحبيب الزائر شأن العذريين، لكن انشغالها بالسهد والسهر أضاع لذة حلمها، وأذهب نشوة انتظارها.

تراقب مسرى الطيف ليلاً وإنها
لفي شغلٍ عن لذة الحلم بالسُّهد

ويجمع "علي شوقي" أساه، ويكثف يأسه ، ويحشد ألوان قنوطه في بيت واحد، كثيف الدلالة، ظليل المعاني، أعدُّه سر شاعريته ، ومفتاح حسراته، وعنوان دمعاته، عندما قال:

ولي قلب ثكلى قد أطلت عزاءه
ويأبى ضلالاً أن يثوب إلى الرشد

وحسبه في ذلك "قلب الثكلى" الذي يضم سحابات كثيفة من الأحزان الجسام والهموم والأسى المتراكم بعضه فوق بعض؛ لأن صاحبته قد فجعت بفلذة كبدها، ومهجة فؤادها؛ فحزنها عميم، وكربها جثيم، وولهها عظيم، لا تستفيق منه البتة، بل ربما استمرأته وعاشت فيه؛ شأن الرومانسيين الذين يستعذبون الألم ويجترون الأحزان، ويرجعون الهموم، ويتسلون بها؛ ومن ثَمَّ فإن هذه الثكلى لا تخرج عن حزنها بحال؛ إذ قد ركن قلبها إليه، حتى صار له مسكنًا وإليه مأوى ومرجعًا، وهكذا أيضًا كان

([1]) ديوان علي شوقي صـ٣٧، ٣٨ .

قلب "علي شوقي" الذي أطال عزاءه، فلم يجد فيه العزاء، ومرَّنه على ألوان التسلية فلم تنفع معه تسلية، ولم تُجد تسرية؛ لأنه أبى – ضلالاً – أن يثوب إلى رشده، لافتقاده أدوات الرشد، وافتقاره إلى ما يضبط إيقاعه، ويذهب أوجاعه.

أرأيت كيف حشد الشاعر كل هذه المعاني العالية، في تعبيره الرائق الظليل عن أوجاع قلبه وهموم فؤاده بقوله في إيجاز مطنب: "ولي قلب ثكلى" إنها ثلاث كلمات حاشدة للمعاني مركوزة الشعاع، متزاحمة الظلال ، دانية القطوف والثمار.

ثانيًا: عاشق صرعه العشق ورومانسي أضناه الهوى، يقول علي شوقي:

ألم يأن أن ترقا الدموع السواجم
وتسمع في شرع الغرام المظالم
وكيف تقر العين قد غاب نورها
وينصفني منه الهوى وهو حاكم
أنحمد ذل الحب للحر ضِلَّة
ونكبر سلطان الهوى وهو ظالم
وفي كل يوم مصرع لمتيم
كأن دموع المغرمين مغارم
أرى الحب أضناني وأوهى عزيمتي
وأولى بشكو الحب في الناس حازم
وأرهقني حتى هممت بقتله
فساعده صرف الزمان المهاجم
فليس هوى ما تسكب السحب دمعها
وليس بشجو ما تنوح الحمائم[١]

وفي هذه اللوحة الباكية يظهر "علي شوقي" صريعًا في ساحات الهوى، شريدًا في مهامه الحرمان وفلوات الأحزان، محبًا أضناه الحب، ورومانسيًا أوهى عزائمه الغرام، وعذريًا دموعه سواجم، ولا تسمع في شرع غرامه مظالم، ويود لو تُسمع، وفي كل يوم له مصرع مع بقية العاشقين الذين دماؤهم هدر، وساحات عشقهم مباحة, ولله در من قال:

ترى المحبين صرعى في ديارهِم
كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا
والله لو حلف العشاق أنهُمُ
صرعى من الحب أو موتى لما حنثوا[٢]

كما تُظهر هذه اللوحة أيضًا " علي شوقي " راهبًا في باحات الهوى العذري، أو واقفًا في قدس أقداسه، وكيف لا، وقد تجرع كؤوس حرمانه، وذاق هواه، وذرف على عشقه دموعه رخيصة ، وبذل دماءه مغارمًا وقربانًا لمحبوبته.

إضافة إلى كل هذا رأيناه مولعًا بمفردات العذريين شغوفًا بصورهم، التي تظهرهم هلكى، وصرعى، وممرورين ، وهائمين في عوالمهم المسحورة ، وآفاقهم اللانهائية.

من هذه المفردات : "الدموع السواجم – شرع الغرام – الهوى الحاكم – ذل الحب – سلطان الهوى –

---

(١) ديوان على شوقي صـ٤٠ .

(٢) البيتان في نوادر العشاق: جمع إبراهيم زيدان صـ١– الطبعة الثالثة ، مكتبة الهلال، ولم أقف على قائلهما ، لكن سعادة الأستاذ الدكتور محكم هذا البحث قال: "البيتان مع ثالث لهما أقرب إلى روح الحلاج ، وأكاد أجزم أنها له. انظر: آثار البلاد وأخبار العباد – زكريا بن محمد القزويني صـ١٦٧".

مصرع – متيم – دماء المغرمين – مغارم – الحب أضناني– أوهى عزيمتي – شكوى الحب – أرهقني – الحب – الشجو – تنوح الحمائم " وكلها من وادي الطهر، ومن نهر الغرام العذب الذي لم يدنس برجس، ولم يكدر بمادة، ولكنه يسمو ويصفو، ويرق فيشف عن نفس طاهرة، نبذت أسباب المادة، وتعلقت بخصائص الروح، واستمرأت العذاب اللذيذ ، والألم الممتع، والشهد الذي يجنيه العاشق من دوحة عشقه ، وبستان هواه ، غير آبه بما يحاك ، أو مكترث لما يسمع أو يقال.

وما أجمله وأعذبه عندما غرَّد على فننه، وعزف على نايه قائلاً في ختام لوحته:

أرى الحب أضناني وأوهى عزيمتي
وأولى بشكوى الحب في الناس حازم
وأرهقني حتى هممت بقتله
فساعده صرف الزمان المهاجم
فليس هوى ما تسكب السحب دمعها
وليس بشجو ما تنوح الحمائم
فما للعيون النجل وهي نواعس
يحاربننا جهرًا ونحن نسالم
ومالِيَ أستحلي الملام ودونه
من المحك ما تأبى قِراه الحيازم[١]

وهي زفرة عذرية حارة نفثها " علي شوقي" ؛ فقد أضناه الحب، وأوهى عزيمته الغرام، فحشد فيها كل ما يمكن بذله للمعشوق من دمع وشجو؛ لأن سلطان الهوى أقوى من كل هذا، لا سيما إن صدر عن قلب عاشق، ونفس ملتاعة، وروح متعبة، استوقد نارها عيون نجل، ومقل نواعس، وزاد من فتنتها وسحرها فتورها وانكسارها الجميل وهي ترمي بسهامها، ولا يملك الشاعر إزاءها إلا التسليم والمسالمة، مستحليا – مع كل هذا – ملامة اللائمين ، وعذل الحاقدين كشأن العذريين ، ولله دّرُّ من قال منهم:

وعاذلة تقطعني ملامًا
وفي عذل العواذل لي بلاء[٢]

ومن قال:

أجد الملامة في هواك لذيذة
قربًا بحبك فليلمني اللوم[٣]

وما أملح قول ابن الأحنف:

سماك لي قوم وقالوا إنها
لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم
إني ليعجبني المحب الجاحد[٤]

ثالثًا: عاشق قَلَّ عزمه وكثر أعداؤه. وفي هذه اللوحة، يظهر "علي شوقي " من خلالها عاشقًا ولهًا، تكالبت عليه الوشاة والأعادي، فقلَّ عزمه، وكثر أعداؤه، وتعاضد ضد سعادته الزمان، واتفق على ذلك الحدثان، إضافة إلى نأي الحبيبة وصدها. يقول:

---

(١) ديوان علي شوقي صـ٤١ .

(٢) البيت لقيس بن الملوح ينظر: ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوح صـ ٤٤ ، طبعة دار الطلائع، ٢٠٠٥م .

(٣) البيت للشاعر أبي الشيص الخزاعي. شرح ديوان الحماسة " أبو تمام" للخطيب التبريزي جـ٣، صـ١٧٤ – طبعة عالم الكتاب – بيروت .

(٤) البيتان للعباس بن الأحنف ينظر: ديوانه صـ١٠٢، طبعة دار صادر – ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

لا تعجبوا إن قلت بانت سعاد
فالصد معنى من معاني البعاد
الدار مرمى السهم من دارها
لكنها قد آثرتْ الابتعاد
لم يثنها عني على ما أرى
ثانٍ ولكن ربَّ حبل الوداد(١)

إلى أن يقول:

وليس لي ذنب سوى أنني
في حبها بتُّ كثير الأعاد
ولم أجد من دونها موئلاً
والعزم واهٍ والعوادي شداد
وإن لي نفسًا عزوفًا إذا
سيمت هوانًا آثرت الانفراد
فجنبوني نفثات الهوى
فالقلب أضحى حفنة من رماد
ولا تعيدوا ذكر ما قد مضى
فإنه عندي حديث معاد(٢)

وغير خفي على ناقد تأثر " علي شوقي " بالتراث العربي الذي استدعاه في اسم " سعاد" والتي جعلها رمزًا لمحبوبته التي بانت منه، وبعدت عنه وصدت صدود " سعاد " صاحبة سيدنا "كعب بن زهير " –رضي الله عنه– التي تبلت فؤاده ببعادها عنه.

نقول ذلك ؛ لأن " علي شوقي " لم يكن ليصرح باسم محبوبته تصريحًا كاشفًا عن اسمها وسمتها؛ وإنما هو الاستدعاء من تراثنا التليد لموقف شاع وذاع بين " كعب وسعاد" ، وسر هذا الاستدعاء التراثي الرائع هو إسقاط حالة "كعب" على حالته ، وقياس محنته على محنته، وضم أزمته إلى ساحته، فكلاهما انبثق من مشكاة الحب، وسقيا من معين العشق، وتجرعا معًا كؤوس الحرمان بالصد والبعاد، إلا أن " علي شوقي " قد انقطعت أسباب وصله، وانبترت آمال قربه، فبدا يائسًا شاحبًا، ذابل العود، كسير العزم، قليل الرجاء، خلقا حبل وداده، وقد تجسدت كل هذه المعاني، وتمثلت بين أيدينا من خلال قوله:

الدار مرمى السهم من دارها
لكنها قد آثرتْ الابتعاد
لم يثنها عني على ما أرى
ثانٍ ولكن ربَّ حبل الوداد

وهنا يظهر " علي شوقي " حائرًا مهزومًا أمام سلطان الحب الذي به أصبحت محبوبته قوية الحجة، نافذة القرار، فعلى الرغم من قرب داره من دارها "مرمى السهم" إلا أنها آثرت البعاد، وفضلت النأي، وذلك بسبب انقطاع الود، وتباعد اللقيا، التي بسببها خيم اليأس على الشاعر، وسلم أمره إلى الهجران، وأسلم انقياده إلى الأيام، وأوصى برفع اللوم عن هذه المحبوبة الصادة المبتعدة المتدللة بجمالها، هذا الذي قد عجز الشاعر – في زعمه وباعترافه – أن يقود زمامه المستعصي ، وأن يراود عنانه القوي، وأن يجابه سيفه اللديد؛ لأن الحسن أحمر كما يقولون(٣):

---

(١) ديوان علي شوقي صـ١٠٨ .
(٢) السابق صـ١٠٨ .
(٣) في قولهم : " الحسن أحمر " يفهم منه أن جمال المرأة وحسنها يحتاج إلى من يريق في سبيله الدماء الحمراء ، ويقتل من أجله الأنفس ، فلربما

فلا تلوموها على ما بدا
منها فإن الحسن صعب القياد

وكيف يقوده، وهو صعب القيادة ، يحتاج إلى من يدفع عنه الأعادي ، ويسكت الوشاة، ويخرس الحاقدين ، و"علي شوقي" – والحالة هذه – لا يستطيع أن يدافع عن الحسن ، أو يحميه، ومن ثَمَّ أصبح مرمى للحساد، صيدًا للأعادي ، فريسة للحاقدين، وليس من ذنب له سوى الحب والعشق، وحسبه هذا :

وليس لي ذنب سوى أنني
في حبها بتُّ كثير الأعاد

وهو اعتراف جلي يدل على وقوع " علي شوقي " في شَرَك الحب الذي أوقعه في شرك أعدائه ، وكذلك شرك من يحبها أو يعشقها ، مصطبغًا بصبغة من أعيته حيلته، وأعجزته قواه، فبدا عزوفًا واهيًا، مستسلمًا منعزلاً ، شريد الهوى متحرق الفؤاد. يقول:

وإن لي نفسًا عزوفًا إذا
سيمت هوانًا آثرت الانفراد
فجنبوني نفثات الهوى
فالقلب أضحى حفنة من رماد
ولا تعيدوا ذكر ما قد مضى
فإنه عندي حديث معاد[1]

ولا أجد في قاموس العزلة والتفرد والانطواء والانذواء، والبعد عن ساحات الناس ، واليأس منهم أفصح من هذه المفردات ، التي تزاحمت واحتشدت في هذه الأبيات، دلالة على يأس الشاعر، ووهن عزمه، واحتراق قلبه، واستسلامه لحاضره الغائم، ولأعدائه المتربصين به، واجتراره عشقه وحبه الذي أصبح ذكرى قاسية ، وحديثًا معادًا، لا رونق فيه، ولا غاية له.

وكل هذه الأشياء أمور قد ركن إليها الشاعر، ورضي بها، على حب منه أو كره، لعل فيها شفاءه ودواءه، " وربما صحت الأجسام بالعلل " كما قال المتنبي[2].

ويختتم " علي شوقي " هذه البكائية التي شفت رقة، ولطفت لغة، وفاحت عنبرًا، وماست روعة بتلك الأبيات الرقيقة:

ذاك بساط قد طوته يد
أسدتْ إليَّ اليوم بيض الأياد
فبعد أن كنت حليف الضنى
مدله القلب أليف السهاد
أصبحتُ في عافية وادعًا
وبت نعسان وثير الوساد

قُتل المدافع عن الحسن أو قتل خصمه ومن هنا قالوا : "الحسن أحمر " وذلك باعتبار ملابسات حالاته، وكونه محتاجًا إلى من يسل له سيف الحماية ، ويريق من أجله الدماء .

(١) ديوان علي شوقي صـ١٠٨ .

(٢) عجز بيت للمتنبي وصدره قوله : "لعل عتبك محمود عواقبه" ينظر في هذا ديوان أبي الطيب المتنبي صـ٨٦ بشرح أبي البقاء العكبري – المسمى بالتبيان في شرح الديوان – طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر– بيروت – لبنان .

فليصلح الله إذًا بالها

وليهن جفنيها لذيذ الرقاد[١]

وهي خاتمة طوتْ معها معشوقته بساط هواه بعد نشره، وهي بذلك قد أسدت إليه – في الحقيقة – معروفًا ، وقدمت له معونة ، فلها عليه أيادٍ بيضاء؛ وذلك لأنه كان من قبل معذب الفؤاد، حليف الضنى، مدله القلب، أليف السهاد بسبب عشقه وحبه المشتت بين محبوبة قد جفته، وبين أعادٍ قد تكالبوا عليه، فوهنت قواه وخارت عزائمه.

أما وأنه قد طوى بساط الهوى، وترك أسباب الضنى، فقد عادت إليه عافيته ووداعته، وذاقت عينه طعم النوم، وشعر بدنه بهدوء الرقاد ووثير الوساد، فلها إذًا بيض الأيادي.

ومن هذا المنطلق فقد دعا لها " علي شوقي " بنفس راضية وقلب مطمئن بأن يصلح الله بالها، وأن يهن لذيذ الرقاد جفنيها، مع ما أذاقته – من قبل – من قلق وبعاد وجفوة وقطيعة، ثم أصابته الآن بيأس لا ينقطع ، وحسرة لا تنقضي " واليأس إحدى الراحتين " .

وهكذا شأن العذريين ، ودأب الرومانسيين في الحب، المتبتلين في العشق والذين شعارهم قول "كثير عزة":

أسيئ بنا أو أحسني لا ملومة

لدينا ولا مقلية إن تقلت

رابعًا: صَبٌّ ينهضه الشوق، ويقعده السَّقَمُ

وتحت هذا العنوان يظهر " علي شوقي " صبًا هائمًا ينهضه الشوق ، ويقعده السقم، لا يستقر قراره، ولا تشرق حياته، لكنه يعاني كشأن من أضناهم الحب، وأذواهم الضنى، وحالته كما ذكر عن نفسه صبٌ مُعَنّى. يقول:

الحب أولى بقلب حل ساحته

من أن يخربه يأس وسلوان

والصب يضعف عن تكتيم عبرته

فكيف منه لدفع الحب إمكان

وقد تملكه في ربع عزمته

فكيف يدفعه والعزم وهنان

قد ييأس الصب من وصل فتشغله

ذكرى يمازجها حزن وتحنان

والمرء إن لم يفز بالجد جاوزه

إلى الذي فيه تمويه وبهتان

ظللتُ أخدع نفسي والهوى خدع

كالحرب دبرها للنصر فرسان

لا نصر إلا بوصل يطمئن له

قلبي وإلا فهذا النصر خذلان[٢]

والأبيات تكشف عن حالة من الوجد والضنى والصبابة التي يصل إليها المحبون بعد أن يشف الشوق أرواحهم، ويذوي أجسادهم، ويصير الواحد منهم صبًا ناحلاً، وعودًا ذابلاً تفضحه عينه، ويعجز عن تكتم عبرته، وهو مع هذا الهوى والهوان لا يستطيع دفع الحب وسلطانه عن نفسه، وكيف يمكن له هذا، وهو الذي عجز عن إخفاء عبرته، وكفكفة دمعته؛ لأن سلطان الهوى أقوى من أن يدفع ، وأعز من أن يُصرف عن نفس عاشقة تملكها الغرام، ودبَّ في حناياها الشوق.

(١) ديوان علي شوقي صـ١٠٨ .

(٢) ديوان علي شوقي صـ١٢٦ .

يقول ابن حزم: "وترى المرء شرس الخلق، صعب الشكيمة ، جموح القيادة، ماضي العزيمة ، حمي الأنف ، أبي الخسف، فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب، ويتورط غمره، ويعوم في بحره، فتعود الشراسة ليانًا، والصعوبة سهلاً، والمضاء كلالة، والحمية استسلامًا"(١).

وهكذا حال من يعشق ، وطبيعة كل من يتورط في حبال الحب وشركه ، يعيش به راضيًا مغتبطًا ما دامت حباله موصولة ، وإلا عاش بالذكرى يمزجها بالحسن والتحنان ، وتذكار الماضي الرغيد.

قد ييأس الصب من وصل فتشغله
ذكرى يمازجها حزن وتحنان

وواضح أن هذه الحالة " حالة الصب" قد استولت على مشاعر " علي شوقي " ، واستغرقتها عاطفته وفكره ، فعكف عليها يقلبها في خياله ، ويأتي لها بالنظائر والأشباه؛ لعل ذلك يشفي غلته، أو يبرد لهيب هواه، يقول يرسم صورة واسعة مترامية له:

ما بائس نِضو بأساء ومتربةٍ
عدت عليه زمانات وأزمان
مُدلّه قلق الأحشاء من سغب
يطوي طوال الليالي وهو طيان
يلوح في حالةٍ سَوآء تحسبه
جذعًا ذوت منه أوراق وأغصان
عليه من بدد الأسمال أردية
كأنما هو ميت وهي أكفان
تنبو النواظر عنه وهي راحمة
ويذهب الفكر عنه وهو حيران
تراه يعثر في رجليه من خور
كأنه لشديد الجوع سكران
حتى ليضعف عن شكوى يفوه بها
يا للرجال أما في الناس رحمن
يومًا بأتعس من صَبٍّ تحيفه
حبيبه وتولى وهو غضبان(٢)

وأدوات الصورة هنا النفي والتفضيل : "ما بائس حاله كذا وكذا..، يومًا بأتعس من صب تحيفه حبيبه وتولى وهو غضبان" وهي في تركيبها وهيكلها صورة تراثية ذاعت في الشعر القديم، وراجت عند الشعراء الذين ابتغوا من ورائها تفصيل الحالة ، وتشقيق الفكرة، وإضفاء هالة من المعاني التي أراد الشاعر الوصول إليها من ورائها، وفي هذا التشابه والتشاكه دليل ناهض على تأثر " علي شوقي " بالتراث ، وعبه منه ، واستيعابه صوره ومعانيه، وتبحره في خيالات شعرائه، ورغبته في تقصي آثارهم.

والبأس الذي عناه " علي شوقي "، وجعله مضربًا لحالة الصب – ويقصد به نفسه – هو بائس أخو بأساء ومتربةٍ ، قد التصقت يده بالتراب لشدة حاجته؛ لأن الزمان عدا عليه فضعضعه، وقلقل الجوع والعطش أحشاءه وأمعاءه، فهي خاوية أبدًا ، يلوح لأعين الناظرين – لسوء حاله – كأنه جذع متحرق ، تحاتت عنه أوراقه ،

(١) طوق الحمامة في الإلفة والألاف لابن حزم الأندلسي صـ٦٨ ، ضبط نصه د/ الطاهر مكي ، طبعة دار المعارف – الثالثة ، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

(٢) ديوان علي شوقي صـ١٣٠، ١٣١ .

وذهبت نضرته وأغصانه حتى إن أرديته وأسماله التي عليه تبدو كالأكفان التي تحيط بالميت " كأنما هو ميت وهي أكفان" ، وهو لهذه الحالة المذرية ، والوضع المستكين تنبو عنه النواظر ، وتشفق عليه المشاعر والقلوب، وتتحير في كنهه الأفكار.

ويرتقي " علي شوقي " في صورة هذا البائس، حتى يصوره واهيًا خائر العزم والقوى، يعثر في رجليه من شدة وهنه ومسغبته ، وكأنه لشدة جوعه سكران يتمايل ، وما هو كذلك ، لكنه الجوع الذي فتك به، والضعف الذي أوهن عظمه، وأضعف عزمه، وأسكت صوته، لدرجة أنه يعجز من هزاله أن يفوه بشكواه.

تراه يعثر في رجليه من خور
كأنه لشديد الجوع سكران
حتى ليضعف عن شكوى يفوه بها
يا للرجال أما في الناس رحمان[١]

هذا البائس الذي وصفه على نحو ما سبق في الأبيات من ضعف ظاهر ، وهوان وهزال وغيره... ما هو بأهون من صب محب تحيفه حبيبه، وجار عليه محبه، وتولى وهو عليه غضبان؛ لأن الصب الذي هذه صفاته ، أتعس من هذا البائس، وأشد هوانًا وبؤسًا منه، وفي هذا دليل على رقة حال العاشقين الذين ملك الحبيب أرواحهم، فعاشوا له وبه، لا يستطيعون مفارقته أو البعاد عنه، وأمثال هؤلاء العاشقين لا بد أن تكون عليهم القلوب مشفقة ، والمشاعر معهم متعايشة رحيمة أشد إشفاقًا ورحمة من البائس هذا الذي ذكره الشاعر في تفصيل وإسهاب.

يقول "علي شوقي" يكمل أوصاف هذا الصب الذي هو أتعس من هذا البائس السابق الذكر:

يومًا بأتعس من صب تحيفه
حبيبه وتولى وهو غضبان
فما ترى من محب بائس جلبت
له التعاسة أحباب وحدثان
صب رزاياه مثنىً في أحبته
ودهره ورزيا الناس أحدان
الشوق ينهضه والسقم يقعده
كما تشكى خمول الجد نبهان
تنكرته الليالي بعد معرفة
وقد يكون مع العرفان نكران[٢]

وكأن مصدر التعاسة لهذا الصب المحروم التعس هم أحبابه الذين يفجعونه في عواطفه مثنى مثنى ، ويبالغون في كيده والتنكر له، فآلامه من أحبابه، ونكباته كذلك منهم، وأما رزاياه من دهره وزمانه من حوله، فهي فرادى وأحدان، لا تذكر إذا ما قيست بكيد أحبابه ومحبيه له؛ ومن ثَّمَّ فهذا الصب العاشق ، والرومانسي الحالم عاجز عن دفع هذه النكبات العاطفية التي توجه سهامها إلى شغاف قلبه وسويداء فؤاده؛ لذا نرى الشوق ينهضه من قلق، والسقم يقعده من عجز وحيرة، وكأنه لعثر حظه ، وتشكيه خمول جده " نبهان" وهو الذي طلب السعادة من كل وجه والغنى من كل باب

(١) ديوان علي شوقي صـ١٣١ .

(٢) ديوان علي شوقي صـ١٣١ .

فأخطأه لسوء حظه، فهو يتشكى على كل حال وفي كل هيئة حظًّا خاملاً، وجدًا عاثرًا، بعد أن تنكرت له الليالي بعد احتفاء واحتفال ، وكثيرًا ما تصنع الليالي كل هذا ، وتتشفى به، "والدهر ليس بمعتب من يجزع"(١).

ولقد لخص "علي شوقي" هذا الأمر كله في موضع آخر من ديوانه فقال:

ومن لم يعود رحمة من زمانه
فإن عجيبًا أن يرى وهو باسم
ومن يحرم الإنصاف ممن يحبه
يمت وهو للوجد المبرح كاظم(٢)

(١) عجز بيت لأبي ذؤيب الهذلي وصدره قوله : "أمن المنون وريبها تتوجع " ينظر شعره في : شرح أشعار الهذليين جـ١، صـ٥ لأبي سعيد الحسن بن الحسين السكري – تحقيق / عبد الستار فراج ، مراجعة : محمود شاكر، مكتبة العروبة.

(٢) ديوان علي شوقي صـ٤١، ٤٢ .

الفصل الثالث

التغني بالطبيعة ومزج مفرداتها بالحب

من المسلم به في الدرس الأدبي، وعند مبدعي الأدب ونقاد الفن أن الشاعر العاشق، الذي تحركت مشاعره نحو الجمال فلاحظه وتابعه، وشغف به، وتبتل في محرابه، ورآه في صحوه ومنامه، وطيفه وخياله، مثل هذا الشاعر لا بد وأن تتحرك مشاعره كذلك نحو الجمال الأشمل، والبهاء الرحب، أقصد به جمال الطبيعة، التي انبثق من خلالها علم الجمال، "ذلك العلم الذي يدرس الجمال، ويبحث كل ما هو جميل في المشاعر والأحاسيس التي تبعثها في نفوسنا رؤية الأشياء المتناسقة أو المتناغمة من حولنا(٣)." وليس هناك اتساق أو تناغم وتناسب أجمل من اتساق وتناغم الطبيعة؛ لأنها شيدت بيد المبدع، ونقشت ورسمت بريشة الخالق البديع – سبحانه –، ووشيت بأصباغ القدرة، فتبرجت في أبهى حليها، وبرزت في أجمل حللها ، تشده الأفراد بمناظرها، وتمنح الكل ألوانها وصورها ووحيها وفتنتها وألوانها البديعة، ومن ثَمَّ فقد طفق الشعراء المحبون، بل كل عشاق الجمال يقطفون من صورها، ويقبسون من جمالها ما يتناسب مع ترسم علاقات الجمال الأنثوي وتصوره ، وما يتلاءم ويتفق مع فتنتهم به وشغفهم بسحره وسلطانه(٤).

(٣) ينظر: قضايا علم الجمال د/ هاله محجوب خضر صـ٧ – بدون .

(٤) لقد تحدث شعراء الحب والرومانسية عن علاقتهم بالطبيعة ، واحتفائهم بها ، وامتزاجهم في

وشاعرنا المبدع "علي شوقي" من هؤلاء الذين تغنوا بالطبيعة ، وشدوا مع نايها وصفًا وحبًا، يصفون الليل، ويغنون مع الورقاء ذات الطوق، يناجون الطيور، ويهيمون بالورود، ويمتزجون بالزهور في معرض لها بهيج .

يقول علي شوقي في قصيدة سماها معرض الأزهار :

ومعرض أقيم للأزاهر
لمتعة الأنظار والخواطرِ
يممته لكي أرى ما فيه
من زهر نفسي تشتهيه
إذا به صرح وأي صرح
يجل عن وصف له وشرح
تحير الجمال في أبهائه
وشاعت البهجة في أرجائه
فوردة حمراء كالدهان[١]
تزري على شقائق النعمان
ووردة كوجنة العذراء
مشربة بحمرة الحياء
ووردة تكمن في برعومها[٢]
مثل فم الحسناء في وجومها
أما الأزاهير فما أحلاها
إن أنس من شيء فلن أنساها
كل لها من ذاتها عبير
وما لها في حسنها نظير
فكم ترى من زهرة زرقاء
كأنها قُدت من السماء
وزهرة صفراء كالدينار
كأن فيها قبسًا من نار
وزهرة منظرها عجيب
كهامة توجها المشيب
وزهرة يغمرها الضياء
كأنها لؤلؤة بيضاء[٣]

ونلاحظ في القصيدة تنوع قافيتها إمتاعًا وإثراء في هذا اللون التجديدي المسمى "بالمزدوج" ، والشاعر في معرض حديثه عن الأزهار يوضح أن الغرض من هذا "المعرض" الذي أقيم للأزهار خاصة هو عرض جمالها وحسنها، والتمتع برؤيتها وبديع أشكالها الرائعة، التي زركشت بأحسن ما يكون الحسن، ووشيت بأبهى ما يكون البهاء.

ولقد توجه "علي شوقي" إلى هذا المعرض ونفسه تتوق إلى رؤية هذه البدائع الإلهية فريدة المنظر والحسن، والتي تحير الجمال في بهائها، وشاعت البهجة في ألوانها ، وأصبحت مصدر سرور لكل محزون ودليل رشاد لكل متحير، وشمس إشراق لكل نفس معتمة أو غائمة.

ولقد أخذ الشاعر يقلب نظره الفاحص في هذا الجمال ، ويمتع مقلتيه بهذا الوشي الدقيق ، والنسج الأنيق ، والرسم المنمنم ، ويسوق خياله، ويسرح في عوالمه، محاولاً في إبداع فريد،

مفرداتها، وارتمائهم في أحضانها حديثًا طويلا, يراجع في ذلك : الرومانتيكية للدكتور / محمد غنيمي هلال صـ١٣١، ١٣٢ – دار نهضة مصر للطبع والنشر.

(١) الدهان: هو الأديم الأحمر.

(٢) البرعوم هو كم الزهرة إلى أن تتفتح والجمع أكمام.

(٣) ديوان علي شوقي صـ٨٥ .

وأخيلة عالية التأليف بين كل وردة ووصفها، وكل نرجسة وشكلها، وكل زهرة وما يتوافق معها، على هذا السرد البديع، والتصوير الممتع، والجمال الرائق.

فوردة حمراء كالدهان

تزري على شقائق النعمان

فحمرتها بهيجة، وكأنها من شدة حمرتها أديم مصبوغ بالحمرة التي تسترعي الانتباه، وهي بهذه الحمرة المتفردة تتعالى وتتفوق وتزري بشقائق النعمان، هذا الزهر الأحمر الذي نسب إلى "النعمان بن المنذر" وعرف بحمرته وبهجته(١).

وواضح جلي تأثر " الشاعر " بالقرآن الكريم في قول الملك –عَزَّ وجَلَّ – عن السماء يوم القيامة ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾(٢).

وكذلك قراءاته الواسعة في تاريخ الأدب العربي ومعرفته "بشقائق النعمان".

ووردة كوجنة العذراء

مشربة بحمرة الحياء

وهنا تظهر دقة الشاعر في اختيار لغته وتعبيراته التي تحمل إلينا صوره وإبداعه فقد اختار لهذه الوردة " وجنة العذراء" خاصة ؛ ليرسم لنا بين أعيننا لونًا خاصًا من حمرة معينة لا يمكن الوصل إليها إلى بمرفأ التشبيه وشراع الصورة التي انتخبت " وجنة العذراء" تلك التي يعلوها حمرة مشربة بالحياء تسر الناظرين إليها، وتأخذ بألبابهم .

ولا يعرف معجم الجمال، وأودية مفردات الحسن أجمل أو أنضر من هذه "الوجنة" في حيويتها ونضرتها وحيائها وجمال لونها، وكأن الشاعر بهذا الوصف أراد أن يفرق – في دقة وبراعة – بين مستوى حمرتين: حمرة الوردة في الوردة التي هي كالدهان في البيت الأول، وبين هذه الوردة من هذا البيت، والتي هي أقل حمرة وأشد حياء، لأنه قصد إلى وصفها وإلحاقها بوجنة العذراء خاصة، مراعيًا – في ذكاء – تقلبات لون وجهها ، ونسبة حمرة وجنتها وإشراقها ونضرتها . ثم لنتأمل هذه الوردة الكامنة في برعومها:

ووردة تكمن في برعومها

مثل فم الحسناء في وجومها

والجامع في هذه الصورة – التي تبدو واجمة – بين الزهرة في أكمامها وبرعمها، وبين فم الحسناء الواجمة هو التقبض وعدم الانفراج في كل، لأن الوردة قبل تفتحها لا تزال في كمها منغلقة، لا تنبسط أوراقها تمامًا كالحسناء الواجمة لا تبتسم شفاهها، ولا تنفرج أساريرها، بل هي ذات فم واجم، وشفتين متداخلتين ، لكنها – رغم كل هذا – لا تعدم منظرًا جميلاً وشكلاً حسنًا ، كذلك الوردة – مع هذا الوصف – أبدًا محفوفة بالحسن، ودليل ذلك أن الشاعر أضاف الفم إلى الحسناء خاصة؛ ليدلل – في زعمي – أن الوردة سواء أكانت متفتحة أم في أكمامها لا تعدم جمالاً وحسنًا ، ولكنه أراد من وراء هذا الوصف تنوع الأشكال ، وتباين الألوان، واختلاف

(١) لأن النعمان نزل على أرض بها هذه الشقائق فحماها؛ فكثر فيها ، ونُسب هذا الزهر إليه. ينظر اللسان: "شقق " .

(٢) سورة الرحمن الآية (٣٧) .

المعاني والظلال، وبيان الإيحاءات المشعة من وراء مشاهدة الورد بين باسم وواجم، ومتقبض ومنبسط.

وينتقل الشاعر المرهف من وصف الورود وأشكالها المتنوعة إلى وصف الأزاهير وألوانها، وهي أعم وأشمل، وأتم في الأوصاف لديه وأكمل، من حيث الأريج والعبير والحسن وانقطاع النظير. يقول في إبداع رائق :

أما الأزاهير فما أحلاها
إن أنس من شيء فلن أنساها
كل لها من ذاتها عبير
وما لها في حسنها نظير
فكم ترى من زهرة زرقاء
كأنها قُدت من السماء
وزهرة صفراء كالدينار
كأن فيها قبسًا من نار

فزهرة زرقاء صافية ، كأنها بلونها الأزرق قدت من السماء في لونها الصافي الأزرق ورقتها الواضحة.

وأخرى رآها في صفرتها كالدينار الذهبي لونها أصفر، لكن الشاعر بدقته التعبيرية وكاميراته اللاقطة الدقيقة أراد أن يضفي على هذه الصفرة شيات أخرى تخالطها وتتمازج معها، فجعل فيها قبسًا من نار، لتتداخل مع هذه الصفرة المعروفة في الخاطر المترسمة في العين والذهن، وهي "صفرة الدينار" عناصر أخرى – كألوان مساعدة – لتزيد اللون الأساسي جمالاً وروعة يراها كل مدقق ينظر إلى قبس النار ولهيبها المختلط فيهما حمرة وصفرة معًا، وهذا ما دل عليه كلمة "قبس".

وفي التعبير دقة بالغة ، وتصوير رائع لا يكاد يصل إليه إلا من آتاه "البديع" – سبحانه– ملكة وخيالاً وإبداعًا وفنًا يستطيع من خلالها أن يصور ما لا يستطيع المصور " الفوتوغرافي " تصويره.

ثم يقول:

وزهرة منظرها عجيب
كهامة توجها المشيب
وزهرة يغمرها الضياء
كأنها لؤلؤة بيضاء

ولا شك أن الهامة التي توجها المشيب فيها من القدرة ما يدعو إلى العجب؛ لأن الزمن رسم فيها أعاجيبه ، وأودع رسومه وتجاعيده، إضافة إلى التاج الأبيض الذي تحاط به الهامة، فهي عجيبة في دقتها وقسمها ، وشكلها ورسمها؛ ولذا ألحق بهذه الهامة البيضاء زهرة لها من الدقة والإبداع والخلق والشكل واللون ما لهذه الهامة سواء بسواء. لكن أصل هذا المعنى الدقيق يظل كامنًا في مشاعر المبدع، ومستقرًا في حنايا الشاعر كما يقولون.

وربما كان اللون الأبيض في الزهرة هذه – والتي هي كهامة توجها المشيب – يعلوه في طبيعة بياضه شيء من غبرة أو نحوه؛ فلن تفقد الهامة البيضاء بقية من سواد ولو قَلَّ ، أو لونًا من غبرة تكسوه ، وهذا الخلط بين كثير البياض وبقية السواد أو القليل من الغبرة نراها في الورود بأشكال عجيبة، منمنمة ودقيقة تدل على الإبداع والجمال ، وتدعو إلى الدهشة ، وتملأ العين والنفس فتنة وإعجابًا وجلالاً، وترسم قاعدة الجمال المطلق في الطبيعة الإلهية.

ولقد أراد الشاعر أن يفرق في وصف الزهور بين بياض خالطه غُبرة، أو بقيت فيه بقية منها، وبياض آخر أكثر صفاء وروعة فقال بعد الوصف السابق:

وزهرة يغمرها الضياء
كأنها لؤلؤة بيضاء

وذلك في ضيائها وصفائها دون أن يغيرها أو يمتزج بها شيء آخر يكدر لونها الأبيض الزاهي، وكفى لبياض هذه الزهرة بهجة أن الضياء غمرها، فجعلها لؤلؤة تنشر بياضها أمام عين من يراها تسر الناظرين.

يقول التيفاشي في وصف اللؤلؤ : "واللؤلؤة إما أن تكون بيضاء أو زرقاء أو وردية حمراء أو بنية أو خضراء مسودة، أو ذات ظلال كقوس قزح نتيجة لتدخل الضوء فيها... ولا بد أن تتوفر فيها صفات الجودة من النقاء ثم الشفيف وهي المائية عند الجوهريين[1]، وكلها صفات تزيد من جمال اللؤلؤة والزهرة الملحقة بها في عين من يراها.

ولا يزال "علي شوقي " يشقق المعاني، ويفتح أكمام الصور من خلال مزيد من اللوحات الرائعة التي رسمها بريشته المبدعة لهذه الزهور الريانة. يقول:

وزهرة بينة الشحوب
كالشمس إذ تؤذن بالغروب
وزهرة تهتز في جرتها
كضرة تغار من ضرتها
وزهرة تنظر في ذهول
إلى السماء نظرة البتول
وزهرة تمعن في إطراقها
كأنها تخجل من عشاقها
وزهرة تنضح بالأنداء
كأنها تجهش بالبكاء
وزهرة كالدرة اليتيمة
تخالها من خفر سقيمة
وزهرة على الغصون تتكي
كأنما قيل لها هيت لك
وزهرة مالت على الجدار
كأنها تهم بالفرار
وزهرة مالت إلى الأمام
مثل يد تمتد للسلام
وزهرة قوراء مثل البدر
تغر نجم الليل فهو يسري
وزهرة كالعيون الحالمة
وزهرات كالثغور الباسمة
وزهرات كالعيون النجل
قد غنيت بحسنها عن كحل
وزهرات كهنود الغيد
تهزهن زفرة التنهيد
وزهرات كالقلوب الواجفة
كأنها من الذبول خائفة

(١) ينظر كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار لأحمد بن يوسف التيفاشي المتوفى عام ٦١٥هـ ، صـ٢٤٥، ٢٤٦ حققه وعلق عليه د/ محمد يوسف حسن، د/ محمود بسيوني خفاجي – الطبعة الثالثة ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

وزهرات فتنت بالشمس
تصبح في ركابها وتمسي
وزهرات شع منها النور
كأنهن اللؤلؤ المنثور
وزهرات من بنات الليل
ترى نهارًا مرخيات الذيل
تغض من أبصارها نهارًا
وفي الظلام تخلع العذارا
وزهرات حسنها فتان
كأنها اللؤلؤ والمرجان[١]

فمنها زهرة شاحبة شحوب ضوء الشمس حين تؤذن بالغروب في ذبول وانكسار ، مخلفة وراءها صورًا يعرفها العاشقون.

ومنها زهرة تهتز في جرتها في سرعة وتحفز واندفاع ، كأنها ضرة أصابتها الغيرة من ضرتها فهي أبدًا تروح وتجيء، وتقبل وتدبر في تحفز وسرعة لا تكاد تتوقف.

ومنها زهرة تنظر في ذهول موجهة أنظارها وأوراقها إلى السماء في طهر ونقاء وصفاء يشبه طهر البتول، تلكم المرأة الطاهرة المشرقة الصافية الأردان.

ومنها الزهرة المطرقة إلى الأرض، تمعن في إطراقها وكأنها فتاة خفرة أخجلها نظر عشاقها إليها فهي مطرقة أبدًا، ويستمر علي شوقي في هذه السباحة الشعرية الرائعة في وصف الطبيعة ، حتى يستوفي بعد الصور التي ذكرتها خمس عشرة صورة كلها في وصف الزهرات الفاتنات وإلحاق بعضهن بصورة الحسناء فبعضهن كالعيون الحالمة وأخريات كالثغور الباسمة ، ومنهن كالعيون النجل ، وأخريات كنهود الغيد ، تهزهن زفرة التنهيد... إلى آخر هذه الصور الرائعة التي تدلل على بديع صنع الخالق – سبحانه –. وحسن تعبير الشاعر وفرائد صوره مع بساطتها وتلقائيتها وجمال التصوير عند " علي شوقي " يكمن في التقاطه – في كل صورة رسمها لزهرة أو وردة – ما يلائم هذه الزهرة محل الصورة، يرسم شكلها بدقة، ويحدد ملامحها بكل براعة، ويصبغ ألوانها، ويرسم ملامحها ويحدد مشاعرها بكل اقتدار. فما أبدع قوله:

وزهرات من بنات الليل
ترى نهارًا مرخيات الذيل
تغض من أبصارها نهارًا
وفي الظلام تخلع العذارا

وفيه امتطى " علي شوقي " صهوة التعبير المجازي الرائع ، فقد عبر عن نوع من الزهرات الجميلات بأنهن كبنات الليل ، تلملم أوراقها نهارًا، وترخي ذيلها وتستكين نائمة كفتاة الليل التي تختفي في النهار، وتقبع في بيتها بعيدًا عن العيون، متجنبة الانتشار ما دام النهار موجودًا ، والضوء ساطعًا ، وأما إذا انسلخ النهار وحل الظلام ، فنراها منتشرة في كل مكان ، نشيطة في كل محفل، متبرجة سافرة ، تخلع عذارها ، وتظهر زينتها ، وتهب – من بعد خفر– متهيئة لعيون الناظرين، كذلك هذا النوع من الزهور ينام نهارًا وينشط ليلاً ، يلملم أوراقه في الضياء ، وينشرها في المساء، وهكذا بين الليل والنهار.

(١) ديوان علي شوقي صـ٨٦، ٨٧ .

ولا يخفى على ناقد طرافة هذه الصورة وجمالها ، وجمع طرفين متباعدين في نسق واحد، وفي تلائم عجيب يشهد للشاعر بالموهبة التي مكنته من جمع أطراف جميلة تختفي نهارًا وتحتشم ، وتظهر ليلاً وتتبرج ، وإن كان هناك كبير فرق بين الزهور اليانعات وبنات الليل الشاردات، بين الورود البريئات وبين الفتيات المتهمات!

ولا يزال "علي شوقي" محلقًا في سماء الشعر وفضاءات الإبداع ، لتمتزج مع خياله السابح في أجواء العالم روحه الصافية، وتعلو محلقة متفكرة في قدرة البديع – سبحانه –، ناسبة كل جمال وكل كمال لقدرته وإبداعه – جل في علاه – يقول في ختام هذه اللوحات الناضرة:

فهذه الأزهار من سواها
وبث في أكمامها رياها
وهذه النجوم من أطلعها
بل هذه الآيات من أبدعها
صورها فأحسن التصويرا
وذر في أعطافها العبيرا
لكي تكون متعة للناس
وعبرة لذاكر وناس
فكم ترى من زهر بهيج
لكنه خلوٌ من الأريج
مثل غوانٍ فاتنات مظهرا
لكنهن تافهات مخبرا
وهكذا الدنيا وهذي حالها
كما ترى فلا تقل ما بالها
فكم بها من فاضل فقير
وجاهل يرفل في الحرير
لحكمة يعلمها الحكيم
وهو بكل خلقه عليم
فلينظر الإنسان مم خلقا
في هذه الدنيا وكيف رزقا[1]

ويتنقل " علي شوقي " من هذه السياحة المتأملة في إبداع الخالق – جل في علاه – وما نقشته يد القدرة من ألوان زاهية ، وأصباغ متناغمة متجانسة ، هي في الأصل أصل لكل جمال، ومصدر لكل حسن، ينتقل بعد ذلك إلى الحمامة الورقاء ذات الطوق الجميل، ملهمة الفنان ، وأنيسة الشعراء، ومؤنسة العاشقين والمحبين ، فيصغي إليها ، ويمتزج معها ، ويبكي بعينها ؟، ويشاركها أحزانها وهمومها ، شأنه في ذلك شأن الرومانسيين الذين هاموا في الطبيعة وأنسوا بصحبتها.

يقول تحت عنوان " شوق وشجن " :

ذات طوق سجعت في فنن
حركت شوقي وهاجت شجني
وهي إن تبك هوى أرقها
فأنا أبكي هوى أهلكني
وبكانا لحبيب غائب
وحنينًا لبعيد الوطن
علها قد آنست من غربتي
وحشة فاندفعت تؤنسني
إيه يا ورقاء إني رجل
أنشبت فيه سهام الأعين

(1) ديوان علي شوقي صـ ٨٧ .

دَرَّ در الليل ما أجمله
والأماني نائمات الفتن
فاتقي الرحمن في مستضعف
نهلت منه عوادي المحن
أو فزيدي في البكا إني أُرى
في احتياج لبكاً يسعدني
إن لي جسمًا محت آيته
ظلمة العيش وظلم الزمن
فغدا رسمًا أو اسمًا مهملا
درسوه بعد درس الدمن
ضقتُ ذرعًا بغرامٍ سامني
قلة الصبر وفرط الحزن[١]

والقصيدة دليل على امتزاج الشاعر بالطبيعة الحية المتمثلة في الحمامة الورقاء، التي غنت على غصن لها فحركت شوقه، وهيجت شجنه، وتفاهما فتناغما؛ لأن كليهما يبكي لفراق إلفه، ويشجى لبعاد قرينه، ولعل الورقاء قد آنست من الشاعر غربة نفسية، ووحشة مكانية، وزمانية؛ فاندفعت بغنائها وسجعها تؤنسه، وبشجونها وعزفها تزيل غربته، وتدفع عنه كربته، وتؤنس وحشته، وهو ينادي ويؤكد لها هذه الحقيقة قائلاً لها:

إيه يا ورقاء إني رجل
أُنشبت فيه سهام الأعين

ثم يقول لها راجيًا أن تتخفف من شجونها وشجنها، أو تزيد فيهما:

فاتقي الرحمن في مستضعف
نهلت منه عوادي المحن
أو فزيدي في البكا إني أُرى
في احتياج لبكاً يسعدني

وكأن الورقاء في غنائها وبسجعها هيجت عواطفه ، وأيقظت كوامنه، فرجاها أن تكف عن نواحها، وتخفف من ترديدها وشجونها، وإلا تزيد في كل هذا وتشتد، فلربما كان في هذا الشدو وذاك النواح اسعاد له واسترجاع لأماسيه الجميلة ، وذكرياته الشجية مع أحبابه ومعشوقاته ، وهو بذلك مثله كمثل الرومانسيين، وشأنه كشأنهم في استعذابه الألم واستمرائه البكاء والنواح؛ لأنه يحتاج إلى بكاء يسعده على حد تعبيره – كذلك في ارتمائه في حضن هذه الورقاء وبثه إليها شكواه وشجنه، وتفاعله مع نواحها وهديلها، وهكذا شأن الرومانسيين الذين يعدون الطبيعة معادلاً ومعوضًا عما فقدوه بين أفراد المجتمع، أو عجزوا عن تحقيقه[٢].

ويعضد قولي هذا ما ذكره " علي شوقي " في ذات القصيدة يشكو حبه وغرامه، وحاله وجسمه الناحل إلى الورقاء قائلاً :

إن لي جسمًا محت آيته
ظلمة العيش وظلم الزمن
فغدا رسمًا أو اسمًا مهملا
درسوه بعد درس الدمن
ضقتُ ذرعًا بغرامٍ سامني
قلة الصبر وفرط الحزن

---

(١) ديوان علي شوقي صـ١٢ .

(٢) توسع الدكتور غنيمي هلال في هذا الأمر ينظر: الرومانتيكية صـ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨ ، وكذلك الدكتور يسري العزب في كتابه : القصيدة الرومانسية في مصر ١٩٣٢ – ١٩٥٢م من صـ ٤٩ إلى صـ٥٩ – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م.

وقوله أيضًا في قصيدة أخرى تحت عنوان مناجاة طائر:

أيُّها الطائر غرد ما تشاء
لست أدري ما تقول
لست أدري
أعد اللحن وشنف مسمعي
حسب عيني حسب قلبي الموجع
إنني انهلت عليه أدمعي
بعد أن أزمعت نسيان البكاء
وزكت نار الخليل
طي صدري
قف وطارحني أناشيد الهوى
فكلانا عاشق يشكو الجوى
شفه الوجد وأضناه النوى
غير أني من عزولي في عناء
عيل صبري بالعذول
عيل صبري
يا لقلبي هل لقلبي من طبيب
وحبيبي معرض وهو الحبيب
يسمع الشكوى ولكن لا يجيب
ولديه برء قلبي لو يشاء
ليت شعري هل يميل
ليت شعري
ربما مال ولكن لا إليْ
وانثنى لكن بلا عطف عليْ
يا لقلبي لشجيٍّ من خَلِيْ
يا لقومي ولكم طول البقاءْ
بتُّ من وجدي أقول
ضاع عمري[1].

(1) ديوان علي شوقي صـ٧٨، ٧٩ .

الخاتمة وأهم نتائج البحث

الحمد لله رب العالمين، جعل لكل شيء بداية ونهاية، وتنزه – سبحانه – عن البداية والنهاية، وتفرد بالكمال والجلال... " وبعد".

فلقد طوفنا – عبر رحلة ماتعة – في بستان ديوان الأدب العربي، يقود هدينا فيه شاعر له حضور ومكانة وهو الشاعر " علي شوقي " ، منطلقين في هذه التطوافة من جمال شعره، ولطافة صوره، وفريد إبداعه، ثم من ثناء النقاد عليه، وعلى رأسهم الأديب الناقد عباس محمود العقاد، الذي أطرى شعره، وأشاد به في لغة عالية وصدق رائع.

ولقد توصلت الدراسة إلى عدة توصيات ونتائج، نجمل أهمها في النقاط التالية:

أولاً : كشفت الدراسة عن قدم راسخة لعلي شوقي في ميدان الشعر، شده بها الجميع، وحاز إعجابهم ، لا سيما في الجانب العاطفي ، والبوح الوجداني[2].

ثانيًا: دللت الدراسة – من خلال التحليل والموازنة بينه وبين بعض الشعراء – أن الشاعر عبَّ من لغة القدماء في عصرها الذهبي، وورد عذب بيانهم، وتأثر بالكثير في صورهم لا سيما البارزين منهم.

ثالثًا: أبرز البحث أن " علي شوقي " وقف – كسابقيه – على الأطلال، وبكى واستبكى،

(2) كان الشاعر – رحمه الله – صديقًا للعقاد والمازني وشكري رواد مدرسة الديوان الذين تبنوا نظرية "الشعر الوجداني" وأسموها " نظرية الوجدان".

وانهمرت دموعه حسرات على ديار أحبته ، وناجى صاحبيه، واستأنس بهما، وجاءت صوره – من خلال هذا العرض – تراثية أحيانًا ، وأحيانًا أخرى جديدة ومبتكرة .

رابعًا : لقد ظهر " علي شوقي " – من خلال استقراء شعره ودراسته – عاشقًا شفه الهوى، وأضناه الجوى، وعذبه البعاد، وأرهقه السهاد، وكأنه من نسل بني عذره، أو واقف على عتبات هواهم.

خامسًا: حددت الدراسة – من خلال تحليل الشواهد أن الشاعر في منحاه ينسلك في عقد شعراء العشق الذين شكوا للكون مواجدهم وعذابات هواهم.

سادسًا: كشفت الدراسة جوانب الإبداع عند " علي شوقي"، ولا سيما ما يتعلق بالجانب العاطفي والوجداني " محل الدراسة " والذي احتل الجانب الأكبر من ديوانه.

سابعًا: أوضح البحث بأن "علي شوقي" مزج حبه وعواطفه بالطبيعة، التي تغنى بها وخاطبها، وبكى بعينها، ووصفها بكل براعة واقتدار.

ثامنًا: لم يأخذ "علي شوقي" – فيما أعلم – ذيوعًا يليق به ، وشهرة تتسق مع مكانته وعلو قامته؛ ومن ثم فهذه الدراسة – وإن وجُد غيرها – تُعَدُّ ميزانًا تعتدل به كفة الرجل، وتضيف إليه بعضًا من حقه الذي لم يحظ به إذا ما قيس بقرنائه وأهل عصره.

تاسعًا: في ختام الدراسة ركز البحث على أن الشاعر ضرب بسهم وافر في عالم الشعر، وبَزَّ بعض أقرانه في مجال الإبداع، غير أن الأضواء لم تسلط عليه تسليطها عليهم.

عاشرًا: أوضح البحث أن الشاعر صال وجال في جل الأغراض الشعرية، وطرق أكثر الأغراض، لكن جُلَّ شعره في عتاب الحبيبة، ووصف أحوالها معه وأحواله معها، وموقعها في قلبه ، وقيمتها في نفسه ، وغير ذلك مما أوضحته الدراسة، وأبرزتُ جمالياته عبر فصول البحث.

حادي عشر: الدراسة – في مجملها – رصد كامل، وبيان مفصل للجانب العاطفي والبوح الوجداني الذي ربط الشاعر بنزعة سامية طاهرة ، حلقت به في سماء عالية بعيدة عن جاذبية الأرض وشوائب المادة.

أدعو الله أن أكون قد وفقت فيما قصدت، وفي سبيله بذلت الوقت والجهد، (وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين).

فهرس المصادر والمراجع

١- أحلى عشرين قصيدة في الحب الإلهي – فاروق شوشة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٧م.
٢- الأمالي – لأبي علي القالي البغدادي – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .
٣- جمهرة أشعار العرب – لأبي زيد القرشي – شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ علي فاغور، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الثانية –ج ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .
٤- حياة الحيوان – للدميري – كتاب الجمهورية – الطبعة الثانية – ١٩٩٦م .
٥- ديوان أبي الطيب المتنبي – بشرح أبي البقاء العكبري – المسمى بالتبيان في شرح الديوان – طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان .
٦- ديوان أحمد محرم – الطبعة الأولى – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م – مكتبة الفلاح .
٧- ديوان العباس بن الأحنف – الطبعة الثانية – دار صادر – ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .
٨- ديوان علي شوقي – إشراف إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم – طبعة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب عام ١٩٥٨م سلسلة الألف كتاب (١٦٦).
٩- ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوح – جمع الإمام أبي بكر الوالبي – تحقيق: محمد إبراهيم سليم – دار الطلائع – ٢٠٠٥م.
١٠- الرومانتيكية – دكتور محمد غنيمي هلال – طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر.
١١- شاعر الغزل " عمر بن أبي ربيعة " – للعقاد – طبعة دار المعارف ١٩٦٤م – سلسلة (اقرأ) .
١٢- شرح أشعار الهذليين – لأبي سعيد الحسن بن الحسين السكري – تحقيق : عبد الستار فراج – مراجعة محمود شاكر – مكتبة العروبة .
١٣- شرح ديوان أبي نواس – ضبطه إيليا الحاوي – طبعة دار صادر – الكتاب اللبناني – ١٩٨٧م.
١٤- شرح ديوان الحماسة " أبو تمام " – للخطيب التبريزي – طبعة عالم الكتاب – بيروت.
١٥- الشريف الرضي حياته وشعره – د/ عبد الفتاح الحلو – القسم الثاني – الطبعة الأولى – ١٩٨٦م .
١٦- الشعر الجاهلي " دراسة في منازع الشعراء د/ محمد محمد أبو موسى – طبعة مكتبة وهبة – الطبعة الثانية – ١٤٣٢هـ – ٢٠١٢م .
١٧- شعرنا القديم والنقد الجديد – د / وهب أحمد رومية – طبعة عالم المعرفة – ١٩٩٦م – الكويت.
١٨- طوق الحمامة في الإلفة والألاف – لابن حزم الأندلسي – ضبط نصه د/ الطاهر مكي – الطبعة الثالثة – دار المعارف – ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م .
١٩- طيف الخيال – للشريف المرتضى – تحقيق : حسن كامل الصيرفي – سلسلة الذخائر ٢٠٠٨م.
٢٠- العشاق الثلاثة – د / زكي مبارك – طبعة دار المعارف – الطبعة الثانية سلسلة (اقرأ).

٢١- علم الجمال والنقد الحديث – عبد العزيز حمودة – طبع مكتبة الأنجلو المصرية.
٢٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – لابن رشيق القيرواني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – طبعة : دار الجيل – بيروت لبنان – الخامسة، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
٢٣- الغزل العذري في العصر الأموي – د/ حسن عبد القادر مصطفى – الطبعة الأولى – ١٤٠٣هـ، – ١٩٨٣هـ.
٢٤- الفاخر : للمفضل بن سلمة بن عاصم ، العدد (٣) – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٤م .
٢٥- فرائد الخرائد في الأمثال – لأبي يعقوب يوسف بن طاهر – تحقيق الدكتور / عبد الرازق حسين – طبعة نادي المنطقة الشرقية بالدمام – المملكة العربية السعودية.
٢٦- القصيدة الرومانسية في مصر ١٩٣٢ – ١٩٥٢- د/ يسري العزب – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.
٢٧- قضايا علم الجمال – د/ هالة محجوب خضر – بدون .
٢٨- كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار – لأحمد بن يوسف التيفاشي المتوفى ٦١٥هـ – حققه وعلق عليه د/ محمد يوسف حسن – د/ محمود بسيوني خفاجي – الطبعة الثالثة – ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م – دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .
٢٩- لسان العرب – للإمام ابن منظور – طبعة دار المعارف – تحقيق عبد الله الكبير – محمد حسب الله – هاشم الشاذلي .
٣٠- مجلة الزهراء – كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة – العدد الثاني والعشرون الجزء الثاني مارس ٢٠٠٤م .
٣١- مدامع العشاق – د/ زكي مبارك – الطبعة الثانية – ٢٠٠٦م قصور الثقافة – سلسلة ذاكرة الكتابة .
٣٢- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء – للمرزباني – تحقيق وتقديم محمد حسين شمس الدين – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الأولى – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.
٣٣- نوادر العشاق – جمع إبراهيم زيدان – الطبعة الثالثة – مكتبة الهلال .
٣٤- وقالوا في الحب – خالد اللحام – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م – المؤسسة اللبنانية العربية – بيروت .

فهرس الموضوعات

المقدمة	١١٣٩
"ملخص البحث بالعربية"	١١٤٠
Research Summary	١١٤١
التمهيد : " إطلالة على حياة علي شوقي "	١١٤٢
الفصل الأول : وقفات على أطلال الحبيبة وديارها	١١٤٤
الفصل الثاني : الغزل ووصف الجمال وبيان أحوال الحبيبين.....	١١٥٢
الفصل الثالث: التغني بالطبيعة ومزج مفرداتها بالحب	١١٨٤
الخاتمة وأهم نتائج البحث	١١٩٢
فهرس المصادر والمراجع.....	١١٩٤
فهرس الموضوعات	١١٩٦